مشاهير

الرحالة العرب

كمال بن محمد الريامي

كنوز
للنشر والتوزيع

مشاهير الرحالة العرب

مشاهير الرحالة العرب

تأليف

كمال بن محمد الريامي

رقم الإيداع: 23077 - 2012
الترقيم الدولي: 6-169-709-977-978
عدد الصفحات: 192 صفحة

الطبعة الأولى
1434 هـ / 2013 م

إشراق لصف وإخراج الكتب
الصف والإخراج الفني
هاتف: 01092551640

كنوز
للنشر والتوزيع
الإشراف العام: ياسر رمضان
14 شارع جواد حسني متفرع من شارع قصر النيل – وسط البلد – القاهرة
هاتف: 00201227717795
00201117333660
تليفاكس: 0020223961698
Email: Kenouz55@yahoo.com

مشاهير الرحالة العرب

تأليف

كمال بن محمد الريامي

كنوز
للنشر والتوزيع

مُقَدِّمَة

ترك الرحالة العرب الأوائل نتاجاً غزيراً في مجال أدب الرحلات، وامتازت رحلاتهم ـ البديعة ـ بمزايا عديدةٍ ، توقف عندها الباحثون والدارسون كثيراً ، ولا سيما المستشرقون الذين أشبعوا هذه الرحلات دراسةً وتمحيصاً وتحقيقاً ، وتوصلوا إلى حقيقةٍ هامة مفادها أن العربي القديم كان (نِضوَ أسفار)[1]، يعشق الترحال والتنقل من بلدٍ إلى بلد، يدفعه إلى ذلك حب الإستطلاع والإستشكاف، والبحث عن الحياةِ الهانئة والعيش الرغيد، فركب البحر وقطع البراري والصحاري والقفار والمفازات الطوال، برباطة جأشٍ وشجاعةٍ نادرة، وكله أملٌ في ملاقاة عوالم أخرى وشعوبٍ مختلفة ليعود إلى مسقط رأسه منتشياً وفرحاً يقص على الناس أخبار رحلاته العجيبة والغريبة.. ولأدب الرحلات مذاق خاص، ونكهة فريدة عند أغلب القرآء، ذلك لأنه يُجلي لنا معالم ومظاهر ما خفي عنا من أمور وأحوال البلدان وأصقاع الأرض المختلفة،.. وتزداد الرحلة متعةً كلما بَعُد الرحالة عن بلده كثيراً، وزار بلداناً بعيدة غريبة في عاداتها وتقاليدها... وتزداد الرحلة ـ أيضاً ـ متعة كُلما أمسك الرحالة بناصية الأدب والكتابة بكل اقتدار، فعند ذلك ينقل لنا وصفاً دقيقاً ـ لمشاهداته في البلدان التي زارها ـ مُطعماً بروعة البيان وجزالة البلاغة وعذوبة السرد.

وأدب الرحلات فن اشتركت فيه سائر الأمم القديمة المتحضرة، وكان للعرب فيه القدح المُعلي والنصيب الأوفى، وحققوا فيه قصب السبق بين سائر الأمم بشهادة كبار المستشرقين.. وإن كنا الآن في آخر ركب الأمم المتحضرة المهتمة بهذا الفن.

---

(1) بمعنى كثير الترحال، والعبارة للأديب أنيس المقدسي استعرتها منه حين وصف في كتابه الفنون الأدبية ص261 الأمير شكيب أرسلان بأنه كان : نضو أسفاره.

وقد عرفت اليونان - القديمة - مجموعة من الرحالة أشهرهم (هيرودوت) « الـذي زار مصر وقُبرص وفينيقيا وآشور وإيران وتوغل في الشمال إلى البوسفور، وأودع مشاهداته في هذه الزيارات أو الرحلات تاريخَه الكبير، وخَلفَه طائفة من مؤرخي الإغريق حفلت كتبهم بأخبار الأمم المجاورة، ولعل أهمهم (بلوتارك) الذي عُني بتاريخ اليونان والرومان، ومنه استمد شكسبير كثيراً من مسرحياته... ونلتقي في القرن الثاني للميلاد ببطليموس الإسكندريّ، وهو إغريقي الأصل، وقد ترك كتابين في الجغرافية والفلك. ونراه يدوّن وصفاً مفصلاً للبلدان والأماكن في عصره ذاكراً أطوالها وعروضها، ومبيناً بالرسم مواقعها»[1].

وحين أصبحت «روما عاصمة العالم القديم، وتوغل أبناؤها في إمبراطوريتها الواسعة، وصلت سُفنهم إلى جزائر كناريا في المحيط الأطلسي، كما وصلت إلى الهند والشرق الأقصى، وطوفوا بدولتهم في إفريقية وآسيا، وجمعوا من هنا وهناك أخبار الأمم المفتوحة في أوربة وغير أوربة، حتى ليُمكن أن يُقال إن مؤرخيهم جمعوا لنا كل ما كان معروفاً عن سطح الأرض في زمانهم. وفي مقدمة هؤلاء المؤرخين يوليوس قيصر الذي دوّن في كتابه «التعليقات» حروبه في الغال، ووراءه كثير من مؤرخي الرومان، يقصون الأسفار والرحلات، ويصفون البلدان النائية، وممن برعوا في ذلك «تاسيت» الذي قصّ أحوال التيوتون الأوائل في كتابه جرمانيا»[2] و«تاريخ الإنسان إنما هو تاريخ لمحاولاته التعرف ثم السيطرة على العالم الخارجي من حوله، وقد ناضل أولاً القوى الحيوانية التي تحول بينه وبين هذه السيطرة، ثم أخذ يُناضل القوى الإنسانية، فتكونت القبيلة ثم تكونت الأمة، واندفعت من إقليمها إلى الأقاليم المجاورة تكتشف آفاقاً جديدة. وكل هذه رحلات بدأت ضيقة، ثم

---

(1) الرحلات، د/شوقي ضيف ص8 بتصرفٍ يسير.

(2) المصدر السابق ص8 بتصرف.

اتسعت مع مر الزمن. فالإنسان وُلد راحلاً، وإن أعجزته الرحلة، تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال، ونجد ذلك مبثوثاً في الأساطير الأولى، كما نجده ماثلاً في الحروب والفتوح القديمة، وما سطره الملوك الأُول في مصر وغير مصر.

ومن المعروف أن ملوك مصر سجلوا رحلاتهم في آسيا. وعلى جدران معبد الدير البحري بمصر العليا تصاوير بديعة لسفن الملكة حتشبسوت من ملوك الأُسرة الثامنة عشرة وهي عائدة من رحلتها إلى بلاد «بونت» في الجنوب. وأكبر الظن أنهم كانوا يُطلقون هذا الإسم على بلاد الصومال. وعلى نحو ما جابت [سفن الفراعنة] البحر الأحمر جابت [كذلك] بحر الروم»[1] و«الرحلة التي قام بها القُدماء المصريون عام 1493 قبل الميلاد تُعد من أقدم الرحلات التجارية والإثنوجرافية على الإطلاق. ذلك حين أبحر في النيل صوب جنوب مصر أسطولاً مكوناً من خمسة مراكب، وعلى متن كل مركب واحد وثلاثون فرداً، وذلك بهدف تسويق بضائعهم النفيسة التي شكلت آنذاك البخور والعطور. نتج من هذه الرحلة اتصال المصريين القدماء بأقزام أفريقيا، وتأكيداً لإقامة علاقاتٍ معهم فيما بعد، فقد صورت النقوش في معبد الدير البحري استقبال ملك وملكة بلاد بونت لمبعوثٍ مصري. أوضحت النقوش كذلك بعض تفاصيل الصفات الجسمية لتلك الشعوب، وبدا واضحاً ما اتصف به أهل المملكة من تراكم السمنة بإفراط (خصوصاً على الإلية)، شأنهم في ذلك شأن جماعة البوشمان الموجودين حالياً في صحراء كلها ري»[2] «وكان للفينيقيين رحلات بحرية كبيرة خاضوا فيها عُباب المحيط الأطلسي وحَطّوا رحالهم في الجزائر البريطانية، وأقاموا مستعمرات لهم على طول بحر

---

(1) المصدر السابق ص7، وما بين معكوفين من عندي للتوضيح.

(2) أدب الرحلات، د/حسين فهيم ص23،22.

الـروم في الجنـوب وفي أسـبانيا»[1] وعـرف العـرب القـدماء الـرحلات والهجـرات الجماعيـة والفرديـة، وأقـاموا مسـتوطنات سُـكانية علـى حـدود دولـتي الفـرس والـروم في العـالم القـديم، وطرقـوا بلـداناً وأصـقاعاً مختلفـة بهـدف التجـارة والتكسـب، عـن طريـق البـر والبحـر، وقـد وصـل العـرب في فتـرة مـن فتـرات - التـاريخ القـديم - إلى السـيطرة علـى طُـرق التجـارة العالميـة البريـة والبحريـة، ووصلت قوافلهم المُحملة باللبان والبخور إلى أماكن بعيدة عن جزيرة العرب.

«ويجمـع الجغرافيـون والمؤرخـون المسـلمون وغيرهـم علـى أن العـرب مـن سُـكان سـواحل شـبه الجزيـرة العربيـة ملاحـون مهـرة مُنـذ القـدم. ففـي جنـوب الجزيرة العربية قامت حضـارات زاهـرة في اليمن، وكـان اعتمادها أساسـاً علـى النشـاط التجـاري في البحـر العربـي والمحيـط الهنـدي. هـذا وقـد اتصـل اليمنيـون أيضـاً بشـعوب أفريقيـا الشـرقية وجُزرهـا، وكـانوا يُتجـرون مـع أهلـها. ويعـود الفضل إلى هؤلاء اليمنيين القُدامى في معرفة الطرق البحريـة وانتشـار سـفنهم، الأمر الذي جعل الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم يقول:

ملأنا البرّ حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا

ولقـد تنـاول كـثير مـن المستشـرقين والبـاحثين المسـلمين موضـوع الملاحـة البحريـة عنـد العـرب بالدراسـة والتوثيـق، وأكـدوا سـبق العـرب علـى ملاحـي الغرب في فن الملاحـة والكشـف البحـري. لـيس هـذا فحسـب، بـل إن الـرحلات البحرية العربية قد ربطت بين سواحل أفريقيـا الشـرقية ومنـاطق عديـدة بآسـيا. وهكـذا زخـرت قصـص البحـارة العـرب قبـل الإسـلام وبعده بالمعلومات عن طبـائع الشعوب والعادات والتقاليد في تلك البقاع البعيدة مثل الهند والصـين، وذلـك في الوقت الذي كانت أوروبا تجهل الكثير عن هـذه الأمـاكن»[2] والرحلـة كلمـا ذُكـرت «تبـادر إلى الـذهن موضـوع الهجـرة، إذ الهجـرة في حقيقتهـا رحلـة سـريعة

---

(1) الرحلات، د/شوقي ضيف ص7.

(2) أدب الرحلات، د/حسين فهيم ص224.223.

وربما طالت وأصبحت إقامة دائمة ولأهل اليمن القدح المعلّى في جانب الهجرة وهم أهل الهجرة الأولى التي تحدثت عنها كُتب التاريخ وأصبحت حديث الناس عبر العصور الغابرة. ومنذ تصدّع سد مأرب بسيل العرم، والمعين لا ينضب من هذه الهجرات المتواصلة ونحن الآن أمام الآلاف من هذه الهجرات التي هي في حقيقتها رحلات لم يُدوّنها أصحابها فأصبحت في ضمير التاريخ نسياً منسياً. وإنما كتب من كتب عندما كانت الرحلة في ذاتها حدثاً أدبيّاً يعتني به أصحاب الفن والأدب فهم يدوّنون ما عنّ لهم في رحلاتهم من مشاهدات وخواطر وليس كل الناس من يستطيع التعبير عن تلك الخوالج والمكتنهات، ولذا قلّ هذا المعين ونضب عندما قلّ المتصدّون له»[1] والعربي القديم بطبعه أميل للرحلة والهجرة، بحثاً عن الكلأ والماء، إذ أن الطبيعة الصحراوية الجافة للجزيرة العربية، طاردة لأبنائها وسُكانها، باستثناء جنوب الجزيرة المُتمثل في (اليمن) الذي يميل أهله إلى الإستقرار في مناطقهم خاصة سُكان الجبال، لإعتمادهم في معيشتهم على الزراعة التي تغذيها الأمطار الموسمية والسدود التي اخترعها اليمنيون لحجز مياه الأمطار والسيول ،... ورغم الرقي الزراعي الذي عرفه اليمنيون القدماء إلا أنهم عرفوا الهجرات والرحلات الواسعة النطاق الذي تحدثت عنها كتب التاريخ .. والعرب ينقسمون إلى حضري وبدوي مال كليهما إلى السير في الآفاق وضرب أكباد الإبل جرياً وراء التجارة والكلأ والماء، فكان «نظر الحضري في الكون نزهةُ ومتعةُ، ونظر البدوي فيه اكتشاف وانتجاع. فالأول مطمئن إلى جدار وسقف، إذا فارقهما مستطلعاً، عاد إليهما مستوطناً، والثاني قلق مشرد، يتطوّح به الترحل إلى غير غاية، فهو أبداً على سفر، تلقاه هائماً في البيد، معلق الأهداب بالسحب، لاهث الفم خلف السراب. ليله تأمل في النجوم ونهاره شوق إل الكلأ، يعيش ما عاش معنياً بتدبر الكون: سمائه وأرضه، كِلفاً بمعر

(1) الرحالة اليمنيون رحلاتهم شرقاً وغرباً، عبدالله محمد الحبشي ص7.

الأرض: سهلها ووعرها، تائقاً الى الماء وما يُنبت، يجوب في البحث عنه جزيرة العرب من عُمان إلى الحجاز، ويهاجر خوف الجوع[1] من مأرب إلى يثرب. وهو في حله وترحاله يصف الجبال وشعابها، والمسالك وصواها ليجنب من يقتفيه الضياع في الفلوات»[2] ومارس العرب «الترحال في شبه الجزيرة العربية والبلدان المُتاخمة، وقاموا برحلتي الشتاء والصيف اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم، وأبحرت سفنهم في مياه المحيط الهندي حيث اتجهوا شرقاً نحو الهند وغرباً صوب أفريقيا. حدث هذا كله قبل مجيىء الإسلام»[3] وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام. ومن أشهر الرحلات التاريخية التي قام بها العرب وأُحيطت بالأساطير، رحلة الملكة بلقيس من اليمن إلى فلسطين لملاقاة النبي الكريم سُليمان ابن داوود عليهما السلام، وهذه الرحلة التي وقعت حقيقة وذكرها القرآن الكريم، قد أكثر الإخباريون العرب القدماء في الحديث عنها وشطح بهم الخيال إلى أبعد مدى، وامتزجت نصوص هذه الرحلة بالأساطير والخيال الواسع والمُفرط، باستثناء النص القرآني الكريم الذي تحدث عن هذه الرحلة في سورة النمل وبعض النصوص المروية عن السلف. ومن الرحلات الشهيرة عند العرب رحلة الملك الضليل امرؤ القيس الشاعر المشهور، إلى قيصر الروم لطلب مساعدته في استرجاع مُلك آبائه، وكانت نتيجة رحلته هذه فاشلة، وتُوفي مقتولاً بأنقره وقبره هنالك معروف إلى اليوم، وفي رحلته قال:

بَكى صاحبي لَمّا رأى الدربَ دُوننا ... وأدرك أنا لاحقانِ بقيصرا

فقلت له: لا تبكِ عَينك إنما ... نُحاول مُلكاً أو نموتَ فنُعذرا

---

(1) لم يكن الجوع هو العامل الوحيد لهجرة العديد من القبائل اليمانية بعد دمار السد، فقد تكون هناك عوامل أخرى، خاصةً إذا عرفنا أن سد مأرب لم يكن الوحيد في اليمن .

(2) مقدمة (أحسن التقاسيم للمقدسي) للأستاذ/ غازي طليمات ص22،21.

(3) أدب الرحلات. د/حسين فهيم ص 89.

ومن رحلات العرب الشهيرة رحلة الملك سيف بن ذي يزن إلى كسرى فارس، لطلب نُصرته على الأحباش الذين غزوا اليمن، وتم لسيف ما أراد من هذه الرحلة ورجع بمجموعة من المقاتلين[1] الأشداء، وقاد تحرير اليمن من الأحباش،وجآءته الوفود العربية مهنئةً بالنصر على الأحباش، وكان على رأس هذه الوفود، وفد قريش برئاسة عبدالمطلب جد النبي الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم -، وفي صنعاء اجتمعت هذه الوفود وحلوا ضيوفاً على ابن ذي يزن في قصر غمدان، وتبارى الشعراء في مدحه والتغني بالنصر العظيم، وعلى رأس هؤلاء الشُعراء أُمية بن أبي الصلت الشاعر الجاهلي المشهور، الذي مدح سيفاً بقصيدةٍ عصمآء[2]، حفظها التاريخ كرائعةٍ من روائع وعيون الشعر العربي القديم، وخبر هذه الرحلة مبثوث في كُتب التاريخ والسير. وبعد مجيء الإسلام أتيح للعربي - البدوي - «أن يُقيم، فلم يُقم إلاّ قليلاً. وتسنىّ له أن يتحضر، فأنسته الحضارة شظف العيش، ولم تُنسه حب الطواف، بل فتحت أمامه سُبلاً لم يطرقها، وأزارته أقطاراً لم يطأها من قبل. فإذا هو أمام هياكل وأوابد، تختفي وراءها حضارات عريقة، ففسر منها ما فسر، واستغلق عليه ما استغلق، لكنه لم ينكص عن صعود جبل، ولا تهيب اجتياز غابٍ أو مفازة، ولا جحد فضل أُمّةٍ لها في صرح الحضارة ركن أو حجر. وحينما أطلقه الإسلام من عقال الصحراء أطلقه من رمضائها إلى جبالٍ عمائمها ثلج، وأدواحُها جنان، وقذفه إلى ربوع قريبُها قصيٌّ، والغريب فيها ألوف مألُوف. فطالت رحلاته، وقصرت الآماد دون قدميه، وشحذت الآيات البيّنات عزمه على الضرب في الآفاق، وفتحت جوارحه سمعاً وبصراً وبصيرةً

---

(1) قيل إن عددهم ثمانمائة شخص توفي نصفهم حين وصلوا إلى عدن....

(2) منها هذه الأبيات التي أوردها ابن كثير الدمشقي في كتابه البداية والنهاية ج2 ص211:

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً في رأس غمدان داراً منك محلالا

واشرب هنيئاً فقد شالت نعامتهم وأسبل اليوم في برديك إسبالا

تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ شيبا بماءٍ فعادا بعد أبوالا

على الكون، فاستفاد وأفاد، واتعظ و وعظ: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذان يسمعون بها) وفرض الوحي على المسلم الحجَّ، فيّمم شطر مكة، يُلبي نداء السماء : (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍ عميق، ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله). وكان للجهاد في الحثّ على السفر شأنُ أيُّ شأن، إذ نفر العرب إلى ميادين الفتح خفافاً وثقالاً، يجوبون الأرض على جُرْدهم العتاق من كاشغر[1] إلى بواتييه[2] في حركةٍ لا تهدأ، فيتعرفون صُفر الروم وسُمر البربر، وشُقر القُوط، ويشاهدون أنماط الحضارات، ويُصغون إلى ضروب الألسنة. ثم هدأ الفتح، ولم تهدأ الأسفار. فقد أخلى الجُند الدروب للتجار، ينتقلون بإبلهم وسفنهم في البر والبحر، ويرسمون المعابر للسّالكين، ويمصّرون الأمصار، ويَركزونَ المنابر والمنائر. وفي ركاب التُجار سعت قافلتان أخريان: قافلةُ البريد الموكّلة بشؤون الحكام، وقافلةُ العلماء الباحثة عن الحقائق. أمّا قافلة البريد فقد كان لها في كل بقعة مُستراد، وعلى كل تخم خفارة، وفوق كل جهاز من أجهزة الدولة سلطان. تنظم الأقاليم، وترسم الطُرق، وتقيس المسافات، وتتعهد الجسور والأسداد، وتعين على تحصيل المكوس، وتبث عيون الأمراء في الممالك المُحيطة بمملكة الإسلام، لتدرس أحوالها، وتتسقط أخبارها، وتفد الوفود إليها، وتضع بين أيدي أُولي الأمر ما يحتاجون إليه من أسرار الروم والروس والبلغار. وأمّا قافلة العلماء فقد كانت تنساب متئدة، وتعمل متئدة، وأكبر همها الوقوف على حقيقة، أو توثيق خبر، أو الاجتماع براوية، أو الظفر بكتاب أو القراءة على شيخ. قال ابن حجر في مقدمته: «بلغ جابر بن عبدالله أحد أجلّة الصحابّة أنّ عبدالله ابن أُنيس يروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديثاً لم يبلغه، فاشترى جملاً وركب من المدينة إلى

---

(1)، (2) يقول غازي طليمات: كاشغر يُسميها المقدسي كشخر بالخاء المُعجمة. وتسميها الكُتب الصينية القديمة (سولو) وهي اليوم من مُدن تركستان الصينية. وبواتييه: مدينة في فرنسا شهدت معركة بلاط الشهداء 114هـ.

الشام وأخذه عنه، والشام على مسافة شهرٍ من المدينة». وفي الدروب الغاصة بالقوافل تشتبك الخطوات، وتتداخل المقاصد، فيُظَنُّ الباحث عن العلم تاجراً يتكسب، ويُخال المتكسبُ حاجّاً يتعبد، والمتعبد واحداً من العاملين في بريد دولة، تنكر في زيٍّ يدفع عنه الريبة، ومضى يتحسس وينقب، ويجمع الأخبار ليصب في حضن من أرسله حصاداً وفراً من شؤون الخصوم من عربٍ وروم»[1] وكان للإسلام دور رئيسي في إحياء أدب الرحلات عند العرب الذين «فتحوا الأرض من الهند والصين إلى المحيط الأطلسي وجبال البرانس، ومن التركستان وجبال القوقاز إلى السودان، وأصبح كل ذلك عالماً واحداً مشتركاً في.الدين والثقافة. ووصف مؤرخوهم مدن هذا العالم وبلدانه، كما وصفوا سُكانه. وكان ذلك إرهاصاً لما قام به علماؤهم وأدباؤهم من رحلات في المستقبل، اشترك فيها التُجار وغير التُجار»[2] و«الرحلة في الحضارة الإسلامية، بالرغم من أنها كلمة لها مدلولها اللغوي، الدال على الترحال إلا أنها - وهذا الجانب الهام فيها - تُعد مصطلحاً علمياً تربوياً متداولاً في أوساط العلماء. فطالب العلم يخرج من بلده بعد أن يحصل ما فيها من علمٍ إلى البلدان الأخرى أو المراكز العلمية المُتفرقة لتحصيل العلوم ولقاء العلماء والشيوخ للتلقي عنهم ومذاكرة العلم معهم، واعتبرت الرحلة من لزوميات طلب العلم، بل هي وسيلة من وسائل التعليم المعروفة في تاريخ الإسلام العلمي، وكان العلماء يحثون الطلبة على الرحلة، وقلما نجد بين العُلماء من لم يرحل في طلب العلم»[3] ومن أوائل الرحلات التي عرفها الإسلام، رحلة وهجرة المصطفى محمدٍ - صلى الله عليه وسلم - من مكة إلى المدينة النبوية، وكانت أخطر وأشهر رحلة عرفتها البشرية، إذ أنها أسست لدينٍ غيَّر مجرى وأحداث التاريخ، وبعثت ضوءاً ساطعاً للبشرية الغارقة في الظلام والظلم - آنذاك -، وما

(1) عن مقدمة (أحسن التقاسيم للمقدسي) للكاتب/غازي طليمات ص2522.

(2) الرحلات، د/شوقي ضيف ص2.

(3) اليمن في عيون الرحالة، د/عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع ص108.

هـي إلا سـنوات معـدودة وإذا بأتبـاع هـذا الـدين يمخـرون عبـاب البحـار والمحيطـات، ويمتطـون سـروج السـابحات، يفتحـون العـالم شـرقاً وغربـاً. ومـن رحلاته - صلى الله عليه وسلم - رحلته إلى الشام قبل بعثته وفي صغره رفقة عمه أبي طالـب، ورحلتـه الثانيـة إلى الشـام في كبره متـاجراً بـأموال زوجتـه خديجـة بنـت خويلـد رضـي الله عنهـا ، ومـن الـرحلات الأولى - كـذلك - في الإسـلام، هجرة ورحلة الأوائل من المسلمين المستضعفين بمكـة إلى الحبشـة، وقـد دارت في هذه الرحلة - التي تبعتها رحلة أُخـرى للمسـلمين - أحـداث كُبرى، مبثوثـة في كُتب الحديث والتاريخ والسير والتراجم.

و«كان المسلمون الأوائل يؤكدون على أن رحلاتهم إما ركـوب الإبل الى بيت الله للحج، وإما ركـوب الخيل في الجهاد كمـا عبر عن ذلـك عبدالله بـن مسعود»[1] واستمرت الرحلات التجارية - بعد مجيىء الإسـلام - واتسع نشـاطها، فكـان «التجار يضربون في أراضٍ جديدة عن طريق القوافل، وعن طريق البحر وسفنه، وقد وصلوا في مغامراتهم إلى الصين والهند وشواطىء إفريقية الشرقية والغربيـة جنوبيّ خـط الإسـتواء، واسـتطاعوا أن ينشـروا الإسـلام في أندونيسـيا وغيرهـا من الجزائـر الهنديـة النائيـة. ومـا قصـة (السـندباد البحـري) الخياليـة إلا صـورة لمغامراتهم في البحـار الجنوبيـة»[2] وإضـافة للـرحلات التجاريـة الـتي بـرع فيها العرب، كانت هُناك الرحلات العلمية الواسعة النطاق والرحلات الإدارية والدبلوماسية والإستكشـافية[3]. فكثرت «الرحلات عند العرب وتنوعت بتنـوع أسـبابها وحوافزهـا السياسـية، والدينيـة، والإقتصـادية، ونشـأت عنـد كـثيرين منهم محبـة المجازفـة فيمـا وراء المعـروف، حتـى ليُظَنّ أن مـنهم مـن وصـل إلى أمريكـا قبل أن يكتشفها كولمبوس، وإن في قصة الفتيـة المغـررين مـن شـباب

---

(1) المصدر السابق ص109.

(2) الرحلات. د/شوقي ضيف ص9.

(3) المصدرين السابقين ص9وص111.110.

لشبونة ما يُشير إلى ذلك»[1] وفي القرآن الكريم حثّ الله ـ تبارك وتعالى ـ على الرحلة والسير في الأرض، واستشهد الرحالة محمد السنوسي في كتابه (الرحلة الحجازية)، بمجموعة من الآيات القرآنية التي تحث على الرحلة والضرب في الأرض، طلباً للرزق وأخذ العبرة والتفكر في ملكوت الله ـ سبحانه ـ وهي كالتالي: يقول تعالى : «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور» وقال سبحانه :«وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون» وقال ـأيضاً ـ عز من قائل : «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يُنشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير» وقال سبحانه :«وحملناهم في البر والبحر» وقال عزوجل :«قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» وقال سبحانه :«أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» وقال ـ سبحانه وتعالى ـ:«قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مُشركين» والآيات التي تحث على الرحلة والضرب في الأرض كثيرة[2].

وللسفر والرحلات آداب في الإسلام وفوائد عديدة وغزيرة تبارى العُلماء في تدبيجها نظماً ونثراً... وأوجد الإسلام مناخاً مناسباً لإزدهار الرحلات التي يقوم بها العلماء والرحالة المسلمون في أصقاع المعمورة ... ونتيجة لذلك برز مجموعة من الرحالة العرب والمسلمين أثروا أدب الرحلات بالنفيس من الأخبار والعجائب والغرائب ومشاهد البلدان والناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم، وشَكّل الرحالة الأوائل برحلاتهم المتميزة نموذجاً فريداً للإنفتاح على الآخر

(1) الرحلات. د/شوقي ضيف ص9 بتصرف يسير.

(2) عن أدب الرحلات، للدكتور/حسين محمد فهيم ص93،92.

الذي نفتقده في أيامنا هذه[1]... وفي كتابي هذا حاولت الترجمة لأشهر الرحالة العرب، والتعريف بنتاجهم في أدب الرحلات، مع اقتطاف نصوصٍ مختارة من هذه الرحلات، واعتمدت في ترتيبهم على التسلسل الزمني كل حسب سنة مولده وسنة وفاته. وكل الذين ترجمت لهم عرب خُلص باستثناء البيروني والهروي وياقوت الحموى، وقد أضفتهم هُنا لأنهم نشأوا على الثقافة العربية ويتكلمون اللسان العربي، ولأنهم في الأساس كتبوا نصوص رحلاتهم باللغة العربية. وأخيراً «فأدب الرحلة ليس بحثاً في التاريخ ولا وصفاً جغرافياً.. كما أنه ليس قصة قصيرة، أو رواية، أو قصيدة شعر وإنما هو هذا وذاك ومن ثم يكتسب خصائصه المتميزة وطعمه العذب... وقدرته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع وسبر غورها العميق. إنها حركة في الطول والعرض والعمق... تجوال في جغرافية الأماكن والظواهر والأشياء... وإيغال في النبض الذي كاد يغيب عن العيان، ولكنه ما يلبث أن يمنح سخاءه لأولئك الذين ينصتون جيداً للأصوات البعيدة وهي تتشكل تحت جلد الظواهر والخبرات... وأدب الرحلة.. في بدء الأمر ومنتهاه.. هو محاولة لاكتشاف سر الأشياء.. والتعرف على تكوينها الذي يبدو أحياناً ككتل الجليد العائمة في المحيطات والبحار، ولا يظهر منها سوى العشر، وتبقى الأعشار الأخرى مغيبة تحت الماء..»[2]

كمال بن محمد الريامي

الجمهورية اليمنية ـ صنعاء

اغسطس 2008م



---

(1) أعني بالإنفتاح على الآخر أن يكون المسلم مؤثراً في أصحاب الأديان الأخرى، لا أن يكون متأثراً فقط، يستقبل منهم إنجازاتهم الحضارية وهو غارق في السلبية...

(2) من أدب الرحلات، د/عماد الدين خليل ص8.



ابن وهب القُرشي

(القرن الثالث للهجرة)

ابن وهب القرشي... رحالة (يُقال إنه استطاع لقاء ملك الصين وعرض عليه الملك صوراً للأنبياء[1]، ومن بينها صورة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ويقال إن هذه الرحلة كانت في سنة 870م)[2]

■ ■ ■

(1) حكاية مشاهدة صور الأنبياء حدثت كذلك لثلاثةٍ من الصحابة – رضوان الله عليهم - وهم في ضيافة قيصر الروم وعن ذلك يحدثنا الدكتور عبد الرحمن حميدة في كتابه أعلام الجغرافيين العرب ص35 -36 فيقول: ((وفي خلافة أبي بكر الصديق نجد عبادة بن الصامت، وهشام بن العاص ، ونعيم بن عبد الله ، يذهبون إلى القسطنطينية في رسالة من الخليفة إلى قيصر الروم يدعوه فيها إلى الإسلام ، ..يقول عبادة بن الصامت، وأقبلنا حتى أنخنا تحت غرفة هرقل ، فقلنا : لا إله إلا الله والله أكبر ، والله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى كأنها عذق سعفةٍ ضربها الريح. ولما لقوا قيصر سألهم : ما أعظم كلامكم؟ فقلنا: لا إله إلا الله والله أكبر، فالله يعلم أنه انتفض سقفه حتى ظن هو وأصحابه أنه سيسقط عليهم ... ثم دعاهم قيصر ليلاً وعرض عليهم صندوقاً فيه صور الأنبياء من آدم إلى محمدٍ عليه السلام)) اهـ. والغريب في الأمر أنه لم ينقل أن هؤلاء الصحابة استنكروا هذه الرسومات والصور للأنبياء التي عرضها عليهم قيصر الروم، ومن بينها صورة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم - .

(2) الرحلات. د/شوقي ضيف ص49.

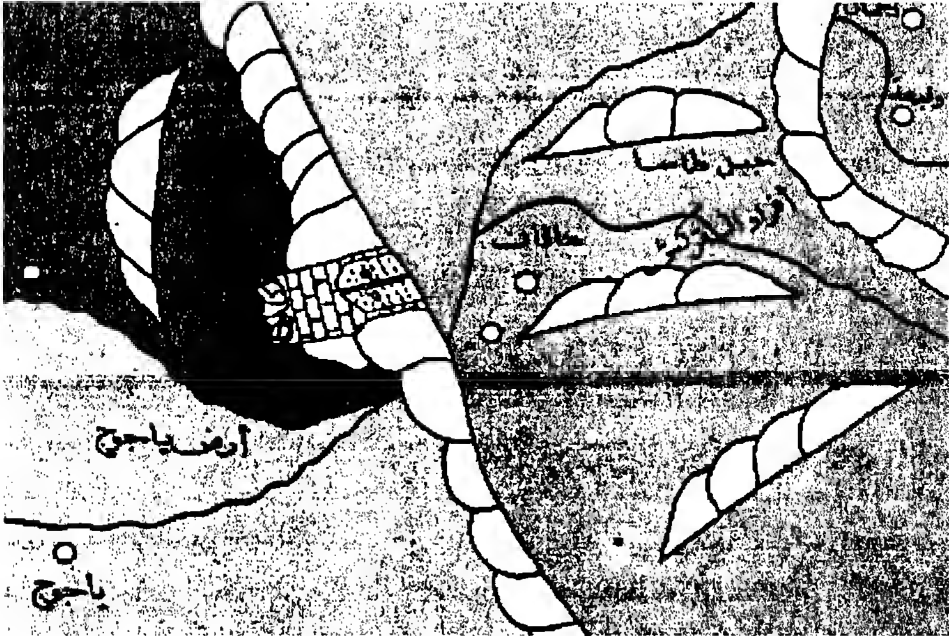
سـلام الترجمـان

(القرن الثالث الهجري)



الإسكندر الأكبر

سلام التُرجمان ... رحالة. أرسله الخليفة العباسي الواثق بالله (في بعثة إلى بلاد الصين ليشاهد السدّ[1] الذي بناه الإسكندر[2] بين العالم القديم وديار يأجوج ومأجوج. وعادت البعثة تقص على الناس أخبار الصين وعجائبها)[3]. (ويرجع سبب الرحلة، كما رواها ابن



منطقة جبل السد في بلاد ياجوج وماجوج

(1) كان للعرب إهتمام بالسد وأمره منذ القدم فقد روى البخاري ان رجلاً قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : رأيت السد، قال: (وكيف رايته؟) قال: مثل البُرد المُحَبَّر فقال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - : (قد رأيته). ومرجع هذا الحديث كتاب نهاية العالم للدكتور/ مصطفى مراد.

(2) في القرآن الكريم الذي بنى السد هو ذو القرنين، وأظن أن الأستاذ شوقي ضيف يذهب مذهب القائلين بأن الإسكندر هو ذاته (ذو القرنين)...

(3) الرحلات، د/شوقي ضيف ص49وص9.

خرداذبة (توفي حوالي 272هـ) ، إلى أن الخليفة رأى في منامه كأن السد الذي بناه ذو القرنين بينهم وبين يأجوج ومأجوج قد انفتح، فطلب رجلاً يخرجه إلى الموضع فيستخبر خبره. وقيل له ما ها هنا أحد يصلح إلاّ سلام الترجمان، وكان يتكلم ثلاثين لساناً ، فدعاه الواثق وقال له: أريد أن تخرج إلى السد حتى تُعاينه ، وتجيئني بخبره . وضم إليه خمسين رجلاً ، ووصله بالمال وبرزق سنة ، وأمر أن يهيأ للرجال اللبابيد ، وتغشى بالأديم(الجلد) ، واستعمل لهم اللستبانات بالفراء والركب الخشب، وأعطاهم مئتي بغل لحمل الزاد والعلف . واستغرقت هذه الرحلة 18 شهراً، وعندما عاين سلام السد أخرج من خفه سكيناً وحك بها موضع شق فيه فأخرج منه مقدار نصف درهم وشده في منديل ليريه الواثق، ثم سأل من هناك هل رأوا من يأجوج ومأجوج أحداً، فذكروا أنهم رأوا ذات مرة عدداً منهم فوق الجبل فعصفت ريحٌ سوداء فألقتهم إلى جانبهم، وكان مقدار الرجل في رأي العين شبراً ونصفاً . ومما هو جدير بالذكر أن قصةَ يأجوج ومأجوج قصةٌ قرآنية، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم مرتين: ففي سورة الكهف الآية 94 جاء قول الله تعالى : ((قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً)) وجاء أيضاً قوله تعالى في الآية96 من سورة الأنبياء ((حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدبٍ ينسلون))) [1] وقام سلمان الترجمان بهذه الرحلة سنة227هـ[2].

(1) ادب الرحلات ، د/ حسين محمد فهيم ص90 -91 وص111.

(2) المصدر السابق ص90.

سُليمـان العراقي

(القرن الثالث الهجري)

سُليمان... رحالة عراقي عاش في القرن الثالث الهجري، ومن (تجار العراق الذين [كانوا] ينقلون عُروض الهند والصين إلى البلاد العربية)[1]، ...ترك كتاباً في الرحلة يُعد من (أقدم ما تحت أيدينا من رحلات العرب البحرية، فإنه ألفها سنة 237هـ/851م، ولم تصلنا في كتاب مستقل، إنما وصلتنا في كتابٍ لعراقي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يُسمى أبا زيد السّيرافي، وقد ذيّل على رحلة سُليمان بطائفة من الأخبار عن أهل الهند والصين، جمعها من أقوال الرحالة. ونشر الرحلة وذَيْلهَا بعض المستشرقين باسم«سلسلة التواريخ»)[2] .

التعريف برحلته

كان دافع (سُليمان) للرحلة تجارياً، لجلب البضائع من الهند والصين، وكان يمر إلى هذين البلدين عن طريق (المحيط الهندي، فالمحيط الهادي، وعني بوصف هذه الطريق وما شاهده فيها من جزائر وغيرها)[3]

(ونقرأ عند التاجر سُليمان[4] وصفاً طريفاً للبحار السبعة التي كانت تجتازها السفن إلى الصين كما نقرأ عنده أخباراً كثيرة عن حياة الناس في الصين والهند، وقد تنبه في الأولى إلى شراب الشاي المعروف، ولم يكن العرب قد عرفوه بعد، فقال: إن عند أهل الصين حشيشاً يشربونه بالماء الحارّ

---

(1) الرحلات، د/شوقي ضيف ص29. وما بين معكوفين زيادة مني.

(2) الرحلات، د/شوقي ضيف ص29.

(3) المصدر السابق ص 29.

(4) ويُعرف التاجر سُليمان العراقي، بالسيرافي ـ أيضاً ـ نسبة إلى سيراف الميناء الشهير في العصر العباسي وانظر أدب الرحلات للدكتور/حسين فهيم ص 225.

ويُقال له السَّاخ وهو أكثر ورقاً من الرُّطبة وأطيب قليلاً، وفيه مرارة، ويُغْلَى الماء، ويُذَرّ عليه منه، وهو ينفعهم من كل شيء)[1].

وعَدّ المؤرخ حسين فوزي رحلة التاجر العراقي سُليمان من (أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن التاسع الميلادي. وربما كانت الأثر العربي الوحيد الذي يتحدث عن سواحل البحر الشرقي الكبير، والطريق الملاحي إليها على أساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه إلى أحاديث جانبية)[2].

وقدم الرحالة سُليمان (وصفاً صادقاً للطرق التجارية، ولبعض العادات والنظُم الاجتماعية والاقتصادية، ولأهم المنتجات في الهند وسرنديب وجاوه والصين، مع قلة الخرافات والأساطير التي تكثر في أحاديث البحارة، بالإضافة إلى الأخبار الوافية عن علاقة المسلمين في الصين... والحق أن الاختصاصيين في الدراسات الصينية من المستشرقين ثبت عندهم صدق كثير مما جاء في حديث سُليمان عن أحوال الصين الإجتماعية)[3].

. نصوص مختارة من رحلته .

(في الهند والصين)

«وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهانئوا بينهم ثم تهادوا، ثم يُشهرون التزويج بالصنوج والطبول، وهديتهم من المال على قدر الإمكان... و[جزاء] السَّرق في جميع بلاد الصين والهند، في القليل منه والكثير القتل. وحيطان أهل الصين الخشب وبناء أهل الهند حجارة وجصّ وآجرّ وطين، وربما كان ذلك بالصين أيضاً. وليس الصين ولا الهند بأصحاب فُرش، ويتزوج

---

(1) المصدر السابق ص32.

(2) حديث السندباد القديم، حسين فوزي. نقلاً عن أدب الرحلات للدكتور حسين فهيم ص 224.

(3) أدب الرحلات ، د/ حسين محمد فهيم . ص224 بتصرف .

الرجل من الصين والهند ماشاء من النساء. وطعام الهند الأرز وطعام الصين الحنطة والأرز، وأهل الهند لا يأكلون الحنطة. وأهل الصين يعبدون الأصنام ويُصلون لها، ويتضرعون إليها، ولهم كُتب دين. والهند يُطيلون لحاهم، ربما رأيت لحية أحدهم ثلاثة أذرع ولا يأخذون شواربهم، وأكثر أهل الصين لا لحى لهم خلقة لأكثرهم. وأهل الصين والهند يزعمون أن البدَدة (الأصنام) تُكلمهم وإنما يُكلمهم عُبّادهم. والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه، فيضربون هامته حتى يموت. وللهند خيل قليل وهي للصين أكثر، وليس للصين فِيلة، ولا يتركونها في بلادهم تشاؤماً بها. وبلاد الصين أصحّ وأقل أمراضاً وأطيب هواءً ولا يكاد يُرى بها أعمى ولا أعور ولا من به عاهة. وأنهار البلدين جميعاً عظام، فيها ما هو أعظم من أنهارنا، والأمطار بالبلدين جميعاً كثيرة. وأهل الصين أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب في اللباس والدواب، وهم في هيئتهم وفي مواكبهم يشبهون العرب، يلبسون الأقبية والمناطق، وأهل الهند يلبسون فوطتين ويتحلّون بأسورة من الذهب أو الجوهر»[1].

(في وصف بعض جزائر المحيط الهندي)[2]

«إن لأهلها ذهباً كثيراً، وأكلهم النارجيل وبه يتأدمون ويدهنون، وإذا أراد واحد منهم أن يتزوج لم يزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم. فإذا قتل اثنين زُوّج اثنتين وكذلك إن قتل خمسين زُوج خمسين امرأة بخمسين قحفاً، وسبب ذلك أن أعداءهم كثير، فمن أقدم على القتل أكثر كانت رغبتهم فيه أوفر»[3].



(1) سلسلة التواريخ، أبو زيد السيرافي نقلاً عن كتاب الرحلات، للدكتور شوقي ضيف ص32.

(2) العنوان للدكتور حسين محمد فهيم.

(3) المصدر السابق ص 225،224.

اليعقوبي

(..... 284هـ)

أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي[1] المعروف باليعقوبي. جغرافي، رحالة... عاش في القرن الثالث الهجري وكانت وفاته سنة 284هـ و((جده الأعلى واضح كان من موالي الخليفة المنصور وشغل في وقت ما منصب حاكم أرمينيا ومصر. وقد كلفته ميوله الشيعية حياته. وظل الاتجاه الشيعي في الأسرة إلى عهد [رحالتنا][2]. وكان جده ووالده أيضاً من كبار عمال البريد. ولا نعرف على وجه الصحة ما إذا كان أحمد اليعقوبي نفسه قد شغل بعض المناصب الحكومية، ولكن أسفاره العديدة تدفعنا لأن نكون من أنصار هذا الافتراض)) [3]

وصف رحلته.

((على الرغم من أن بغداد كانت مسقط [رأس اليعقوبي][4]، إلا أنه ارتحل عنها في سن مبكرة فعاش طويلاً بأرمينيا وخراسان حتى عام 260هـ / 873م وزار الهند وفلسطين ، وكان المعتصم يوجهه في أيام المأمون إلى سمرقند كل سنة في شراء الرقيق الأتراك، وتمتع برعاية الطولونيين أثناء مقامه الطويل بمصر والمغرب)) [5] وترك اليعقوبي كتاباً في الجغرافيا أسماه (كتاب البلدان) ضم فيه معلوماته عن البلدان إلى جانب مشاهداته التي رآها أثناء رحلاته العديدة((وقد انتهى من مصنفه كتاب البلدان الذي أنجزه في

---

(1) اعلام الجغرافيين العرب د/ عبد الرحمن حميده ص 145. .

(2) ما بين معكوفين من عندي

(3) أعلام الجغرافيين العرب د/ عبد الرحمن حميده ص145.

(4) ما بين معكوفين من عندي

(5) أعلام الجغرافيين العرب د/ عبد الرحمن حميده ص145.

مصر إلى خلافة المعتمد العباسي المتوفى سنة277هـ ، ويعتبر كتابه أقدم كتاب عربي وصل إلينا في هذا الباب)) [1].. ويُحدثنا اليعقوبي عن نفسه فيقول : (إني عنيت في عنفوان شبابي وعند احتيال سِني، وحدَّة ذهني، بعلم أخبار البلدان، ومسافة ما بين كل بلدٍ وبلدٍ، لأنّي سافرت حديث السنّ، واتصلت أسفاري ودام تغربي، فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره، فإذا ذكر لي محل داره وموضع قراره، سألته عن بلده ذلك، وزرعه ما هو، وساكنيه من هم، من عربٍ أو عجم... شُرب أهله، حتّى أسأل عن لباسهم... ودياناتهم، ومقالاتهم، والغالبين عليه والمترأسين فيه)[2] إلى قوله: (فلم أزل أكتب هذه الأخبار، وأؤلف هذا الكتاب[3] دهراً طويلاً، وأضيف كلَّ خبر إلى بلده، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدَّمتْ عندي معرفته)[4].

.نص مختار من رحلاته.

(بَغدَاد)

«وإنما ابتدأتُ[5] بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرَّة الأرض، وذكرتُ[6] بغداد لأنها وسط العراق، والمدينة العُظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها، سعة وكبراً وعمارةً، وكثرة مياهٍ، وصحة هواءٍ، ولأنه سكنها من أصناف الناس، وأهل الأمصار والكور، وانتُقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية، وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم، فليس من

---

(1) المصدر السابق ص145.

(2) كتاب البلدان، اليعقوبي ص 5وص6.

(3) أي كتاب البلدان.

(4) كتاب البلدان، اليعقوبي ص 5وص6.

(5) يعني بدأ بذكرها في كتابه (البلدان).

(6) أيضاً في بداية كتابه الآنف الذكر.

أهل بلد إلاّ ولهم فيها محلّةٌ، ومتجر ومتصرّف. فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا. ثم يجري في حافتيها النهران الأعظمانِ، دجلة والفرات، فيأتيها التجارات والمِير برّاً وبحراً، بأيسر السعي، حتى تكامل بها كل متجر، يحمل من المشرق والمغرب، من أرض الإسلام، وغير أرض الإسلام، فإنه يُحمل إليها من الهند، والسند، والصين، والتبت، والترك، والدَّيلم، والخَزَر، والحبشة، وسائر البلدان، حتى يكون بها من تجارات البلدان أكثر ممّا في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها، ويكون مع ذلك أوجد وأمكن حتى كأنّما سيقت إليها خيرات الأرض، وجمعت فيها ذخائر الدنيا، وتكاملت بها بركات العالم»[1].



أحد أزقة بغداد القديمة



---

(1) المصدر السابق ص 7.

المسعـــودي

(.... 346هـ)

علـي بـن الحسـين بـن علـي المسـعودي[1] ... علامـة، مـؤرخ، رحالـة. أدرك أواخـر القـرن الثالـث الهجـري وبدايات القـرن الرابـع الهجـري، وتـرك مؤلفـات نفيسة في مجال التاريخ، وكانت وفاته سنة 346هـ/957م.

. وصف رحلته :

زار الرحالـة علـي بـن الحسـين المسـعودي (المحـيط الهنـدي وشـواطئه في إفريقيا وجزائره الكثيرة، وزار الهند وبلاد الصين وبحر قزوين وآسيا الصغرى والشـام ومصـر وبـلاد العـرب. وتخـتلط في كتاباتـه مشـاهداته بتلـك البلـدان بمشاهدات غيره من الرحالة والسائحين)[2]

وقد (عُرف علي بن الحسين بن علي المسعودي بتطوافه في المدن والأمصـار المختلفة تطلباً للمعرفة. على أنّ أهم ما قام به رحلتان، الأولى عام 921م تعـرَّف في أثنائهـا إلى مصـر وفـارس والهنـد وسـرنديب (جزيـرة سـيلان) ومدغشـقر وعمـان. والثانيـة عـام 926م تعـرّف فيهـا إلى مـا وراء أذربيجـان وجرجـان وإلى الشـام وفلسـطين. وفي سـنة 942م اختـار لـه الفسـطاط (مصـر) مقـراً، فـأكب على جمع ما في رحلاته من حقائق تاريخية وجغرافيـة وأخـذ يـدوّن علـى ضـوئها كتبـه)[3] و(رحـلات المسـعودي هـي رحـلات علميـة ابتغاهـا الرحالـة ليـدعم بهـا دراسـاته في الجغرافيا والتاريخ. وفي هذا الشأن قال: «لـيس مـن لـزم وطنـه وقنـع

---

(1) يقول الدكتور عبد الرحمن حميده في كتابه أعلام الجغرافيين العرب ص252: ((ينحدر أبو الحسن علي بن الحسين ، الشهير بالمسعودي ، من أسرةٍ عربيةٍ عريقة جدها الصحابي الجليل ابن مسعود)) رضي الله عنه .

(2) الرحلات، د/شوقي ضيف ص50.

(3) أدب الرحلة، جورج غريب ص29.

بما نمى إليه إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه على تقاذف الأسفار» لهذا فقد ارتحل يستعلم بدائع الأمم بالمشاهدة، ويعرف خواص أقاليمها بالمعاينة)[1] وجمع أخبار رحلاته في كتابه الشهير: (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، وهو (مؤلف جامع، فيه تُراث العصر بالنسبة إلى العرب وسائر الأُمم، وفيه الاختبارات الشخصية، بالإضافة إلى عُنصر الخرافة الذي حفلت به قصصه، فهو إلى جانب كونه كتاباً في التاريخ والجغرافية، سِفر في الاجتماع والأدب، أما أسلوبه فواضح متنوّع، يقوده الطبع حيناً ويشده الصنيع أحياناً، وكسائر كُتب الرحلات، ليس فيه دائماً حقائق راهنة، فقد يشوبه الاضطراب ويفوته التنقيب العلمي)[2].

ـ نصوص مختارة من رحلته ـ

(في بلاد الهند وسرنديب)

«والهند لا تُملك الملِك عليها حتى يبلغ من عُمره أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلا في كل بُرهة من الزمان معلومة، ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعية، لأن في نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقاً لهيبتها، واستخفافاً بحقها، والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلا بالتخيُّر ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة. ورأيت في بلاد سرنديب وهي جزيرة من جزائر البحر - أن الملك من ملوكهم إذا مات صُيِّر على عجلة قريبة من الأرض، صغيرة البكرة، مُعدَّة لهذا المعنى، وشعره ينجر على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التُراب على رأسه وتنادي: «أيها الناس، هذا ملككم بالأمس، قد ملككم وجاز فيكم حُكمه وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدُنيا، وقبض روحه ملك الموت والحي القديم الذي لا يموت، فلا تغتروا بالحياة بعده».

---

(1) أدب الرحلات، د/حسين محمد فهيم ص96.

(2) أدب الرحلة، جورج غريب ص35.

وتقول كلاماً هذا معناه من الترهب والتزهيد في هذا العالم، ويطاف به كذلك في جميع شوارع المدينة، ثم يُفصل أربع قطع،وقد هُيىء له الصَّندل[1] والكافور وسائر أنواع الطيوب، فيُحرق بالنار ويُذرُ رماده في الرياح. وكذا فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم، لغرض يذكرونه، ونهج يتيممونه في المستقبل من الزمان. والمُلك مقصور على أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم وكذلك بيت الوزراءِ والقُضاة وسائر أهل المراتب لا تغير ولا تبدل. والهند تمنع من شُرب الشراب، ويعنّفون شاربه، لا على طريق التدين، ولكن تنزهاً عن أن يوردوا على عقولهم ما يُغشيها، ويُزيلها عما وضعت له فيهم، وإذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شُربُه استحق الخلع عن مُلكه، إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط[2]،وربما يسمعون السماع والملاهي، ولهم ضروبُ من الآلات مطربة تفعل في الناس أفعالاً مرتبة من ضحك وبكاء، وربما يسقون الجواري فيطربن بحضرتهم فتطرب الرجال لطرب الجواري»[3]

(تجارة العاج)

«والفيلة في بلاد الزنج في نهاية الكثرة، وحشية كلها غير مستأنسة والزنج لا تستعمل منها شيئاً في حروب ولا غيرها، بل تقتلها، وذلك أنهم يطرحون لها نوعاً من ورق الشجر ولحائه[4] وأغصانه يكون بأرضهم في الماء، ويختفي رجال الزنج، فترد الفيلة لشربها، فإذا وردت وشربت من ذلك الماء حرقها وأسكرها فتقع، ولا مفاصل لقوائمها ولا رُكب، فيخرجون إليها بأعظم ما يكون من الحراب، فيقتلونها لأخذ أنيابها، فمن أرضهم تُجهز

---

(1) يقول جورج غريب : الصندل شجر طيب الرائحة.

(2) يقول جورج غريب: الاختلاط، فساد العقل.

(3) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي نقلاً عن أدب الرحلة لجورج غريب ص45.44.

(4) يقول جورج غريب: اللحاء، قشر الشجر.

أنياب الفيلة، في كل نابٍ منها خمسة ومائة مَنّ[1] بل أكثر من ذلك، فيُجهز الأكثر منها من بلاد عُمان إلى أرض الصين والهند، وذلك أنها تُحمل من الزنج إلى عُمان، ومن عمان إلى حيث ذكرنا، ولولا ذلك لكان العاج بأرض الإسلام كثيراً»[2].



(1) يقول جورج غريب: المن، ميزان يساوي 180مثقالاً، والمثقال يُساوي نحو درهم ونصف الدرهم.

(2) المصدر السابق ص46.

محمد بن أحمد المقدسي

(335 – 390 هـ)

محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي، شمس الدين، أبوعبد الله... علامة، جُغرافي، رحالة.. ولد في بيت المقدس (فلسطين) سنة 335هـ/946م.. (ودُعي البناء بلقب جدّه الذي بنى ميناء عكّا في عهد أحمد بن طولون، وعن جده هذا ورث رهافة الحس في تذوق الجمال المعماري، وبهذا الهوى الموروث كان ينقد الأبنية في الأمصار المختلفة. ولُقب بالمقدسي - بفتح الميم وكسر الدال - نسبة إلى بيت المقدس مولده ومرتع صباه)[1].

و(أمه أعجمية تنتمي إلى أسرة كانت تسكن في قرية «بير» من أعمال قُومس في إقليم الديلم غربي خُراسان، ويبدو أن هذه القرابة أعانته على التنقل بين أرضٍ وأرض، ونقلت إلى لسانه كلام الفُرس، فزار أمصار العجم كلها، وأكرم الناس مثواه، وفتح له إلمامُه باللسان الفارسي قُلوب العامة وقصور الأمراء، وأقدره على مقارنة اللغات بعضها ببعض، وعلى تمييز جميلها من قبيحها)[2]،وطلب العلم مُنذ صغره وحصّل معارف كثيرة، واشتهر ذكره، وتميزت شخصيته (بملاح وقسمات، يرسمُها كتابه أوضح رسم. فهو جمُّ النشاط جاد في البحث عن الحقيقة، ذكي النظرة، صادق الرأي، حصيف في النقد، لا يتقبل ما لا يتقبله العقل، ولا يؤمن بالترهات والأخبار الملفقة غير أنه شديد الاعتداد بنفسه، مُفرط في التغني بمزاياه، لا يُقر لمن سبقه بالفضل، ولا يرى بين المؤلفين من يُدرك ما أدرك، أو بين الكُتب ما يجمع العلم المخزون في كتابه. ولا مراء في أنّ غروره يُبعده من قُلوب القراء، لكن القارئ المُنصف يغتفر للرجل كبرياءه حينما يقع في كتابه على كنوز نفيسة، أفنى المقدسي

---

(1) مقدمة أحسن التقاسيم للأديب/غازي طُليمات ص34.

(2) المصدر السابق ص34.

شبابه في جمعها وتنسيقها وصقلها وتقديمها إلى القُراء في أبهى الحلل. المقدسي مؤمن في غير تعصبٍ لمذهبٍ، يتخذ ـ كما يظهر من مجادلاته الفقهية ـ مذهب أبي حنيفة مذهباً، ويحج ويصوم ويُقيم الخمس مُقيماً أو مسافراً، ويؤمُّ الناس في المساجد، ويُقرىء القُرآن، ويُفتي إذا استُفتي، وليس في البلد أعلمُ منه. ولكنه لا يُقبل على العبادة إقبال الخاشعين الزاهدين، ولا يغرق في الشهوات غرق الفُساق، وإنما يأخذ نصيبه الحلال من الدُنيا، ويسخر من المتصوفة، وإن لبس لبُوسهم مضطراً. ويحمل على دُعاة التفرقة، ويعجب من افتراق المسلمين فرقاً في الفروع، وهم في الأصول متفقون. أكسبه التمرُّس بمناقشة القضايا الدينية، والجلوس إلى حلقات التدريس في المساجد جدلاً دقيقاً، وميلاً إلى المصاولة الفكرية. فهو لذلك يستعين المنطق وعلم الكلام في محاورة الخصم والإجهاز عليه.

وخُلاصة الرأي في شخصيته أنها متعددة الجوانب، مشحوذة الملكات، صقلتها الأسفار، وراضتها التجارب، لكنها ظلت أبّية قوية، لا تخشع ولا تتواضع)[1].

..يقول الأديب غازي طليمات: (لاتُحدد منزلة المقدسي إلاّ بالمقايسة، ولا يسلم القياس إلاّ إذا قيس بمن سبقه أو عاش في زمانه. وعلى هذا الأساس قارنه الدارسون العرب والأجانب بغيره. فالدكتور أحمد سوسة يعدُه من كبار الجغرافيين العرب. وكراتشوفسكي يُبايعه بإمارة الأدب الجغرافي العربي ويرى أنه «آخر مُمثل للمدرسة الكلاسيكية الإسلامية بالمعنى الدقيق» وسبرنجر Sprenger يقول فيه : إنه « أكبر جُغرافي عرفته البشرية قاطبة» ويشرح قوله بهذا التوضيح:«ولا أعني بذلك أن كتابه في الجغرافيا يفوق المؤلفات الحديثة في هذا الفن إذ يعوزه من أجل ذلك تجربة الأجيال التالية، ولكنه من المُحتمل أنه لم يسبقه شخص في اتساع مجال أسفاره وعُمق

---

(1) المصدر السابق، ص 37 -38.

ملاحظاته وإخضاعه المادة التي جمعها لصياغة مُنظمة» ويُقدمه كريمرز Kramers على سواه لأنه «أكثر الجغرافيين أصالة» أما غلدميستر Gildmeister فيُجله غاية الإجلال لأنه «امتاز عن سائر علماء البُلدان بكثرة ملاحظاته وسعة نظره » ويرفعه آدم متز إلى ذروة الجغرافيا الإسلامية ولا يُساوي به غير ابن حوقل)[1].

(وهو في رأي بعض المستشرقين أعظم الجغرافيين عند العرب في جميع عصورهم)[2] ..(واخترمته المنية ولما يُجاوز سنته الخامسة والخمسين في خاتمة القرن العاشر الميلادي، وقُبيل نهاية القرن الرابع الهجري سنة 390هـ، 1000م)[3]

.وصف رحلته.

للرحالة الكبير محمد بن أحمد المقدسي كتاب في الجغرافيا أسماه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، وفي نفس الوقت هو كتاب رحلة، وكذلك كانت أغلب كُتب الجغرافيا العربية القديمة، ويُعلل ذلك العلامة والأديب/شوقي ضيف بقوله: (وقد يكون غريباً أن تكون للجغرافية رحلات بعينها، ولكن هذا ما حدث فعلاً، فإن القوم [أي العرب] لم يعمدوا إلى الكتابة في الجغرافيا بطريق النقل والرواية عن الآخرين أو السابقين، بل كانوا يطوفون بأنفسهم في العالم الإسلامي وغيره، ويُقيدون مشاهداتهم وما يقع تحت أبصارهم. فأصبحت كتاباتهم الجغرافية في كثير من صورها رحلات بالمعنى الدقيق، تصور أحوال الناس والعُمران بالعين الباصرة اللاقطة)[4].

---

(1) المصدر السابق ص 64 -65.

(2) الرحلات، د/شوقي ضيف ص 15.

(3) مقدمة أحسن التقاسيم للأديب/ غازي طليمات ص 36.

(4) الرحلات، د/شوقي ضيف ص5.

ويقول الدكتور/حسين محمد فهيم: (لقد ارتبطت الرحلة بكثير من أعمال التُراث العربي في جوانبه المُتعددة. ففي مجال الكشف الجغرافي ووصف الأقاليم مثلاً لعبت دوراً كبيراً فيما تضمنته تلك الأعمال من معرفة وبيان أضحيا الآن تُراثاً تفخر به الأُمة العربية الإسلامية، ويشيد بقيمته الدارسون والباحثون والأجانب. وتأكيداً لدور الرحلة في التُراث الجغرافي للعرب والمسلمين، فإن أبا عبدالله محمد بن أحمد المقدسي أحد أقطاب تُراث الجغرافيا العربية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، يؤكد لنا أهمية رحلاته في أنحاء العالم الإسلامي من أجل المعاينة، وجمع المادة العلمية التي سجلها في كتابه الشهير (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم). يقول المقدسي في كتابه: «نحن لم نُبق إقليماً إلا وقد دخلناه»)[1].

و(ساح المقدسي بين البلاد وهو موفور الشباب، ريّان الرغاب، مشتعل الهمة. وصنف كتابه (أحسن التقاسيم) في سن النضج، فأمن العثار، وتجنب سقطات السابقين ..والمؤرخون متفقون على سَعة البقاع التي زارها، وعلى امتداد الآفاق التي جمع منها معارفه. غير أنهم لا يرسمون مخططاً واضحاً يُبين مبتدأ سفره ومنتهاه ..أمّا زمان الرحلة فقد حددة المقدسي نفسه تحديداً قاطعاً في حديثه عن تأليف كتابه ،وعن إعلانه. ومن حديثه نستنتج أنّه أتم طوافه حول العالم الإسلامي، وتخلل أمصاره وأقطاره، وهو شابٌّ دون الأربعين. ثم أعلن كتابه على الملأ في سنة 375هـ حين بلغ هذه السن الناضجة: «واعلم أني مع هذه الوثائق والشروط لم أُظهره حتى بلغت الأربعين، ووطئت جميع الأقاليم، وخدمت أهل العلم والدين»)[2].

وقد تكلم في كتابه « أحسن التقاسيم» (عن اختلاف أهل البلدان الإسلامية في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم

---

(1) أدب الرحلات، د/حسين فهيم ص 95بتصرف.

(2) مقدمة كتاب أحسن التقاسيم لغازي طليمات ص 35 -36 بتصرف وزيادة يسيرة.

وأوزانهم ونقودهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم وما يُحمل من عندهم وإليهم .ومعادن السعة والخصب، ومواضع الضيق والجدب، والمشاهد والمراصد والخصائص والرسوم (الصفات والطبائع) والممالك والحدود)[1] وفي كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» (تختلط الجغرافيا بالأخبار وعجائب الآثار وأحوال الناس والعُمران، وكانت مُخيلة المقدسي من المُخيلات اللاقطة التي تلتقط كل ما تُشاهده وتُسجله مع التحقيق والتدقيق في الرؤية وما ينقله عن الأفواه والشفاه)[2].

.نصوص مختارة من رحلته.

(العراق ..إقليم الظرف والفتن!!)

«إقليم العراق هذا إقليم الظُرفا. ومنبع العلما. لطيف الما. عجيب الهوا، ومختار الخُلفا. أخرج أبا حنيفة فقيه الفُقهاء، وسُفيان سيد القُراء، ومنه كان أبو عبيدة والفرّا، وأبو عمرو صاحب المَقْرا، وحمزة والكسائي، وكل فقيه ومقرىء، وأديب وسريّ، وحكيم وداه، وزاهد ونجيب، وظريف ولبيب به مولد إبراهيم الخليل، وإليه رحل كل صحابي جليل. أليس به البصرة التي قوبلت بالدنيا، وبغداد الممدوحة في الورى. والكوفة الجليلة وسامرًا. ونهره من الجنة بلا مرا، وتمور البصرة فلا تنسى، ومفاخر كثيرة لا تحصى، وبحر الصين يمس طرفه الأقصى، والبادية إلى جانبه كما ترى. والفُرات بقربه من حيث جرى. غير أنه بيت الفتن والغلا، وهو في كل يوم إلى ورا، ومن الجور والضرائب في جهد بلا. مع ثمار قليلة، وفواحش كثيرة!!، ومؤن ثقيلة. وهذا شكله ومثاله. والله أعلم وأحكم»)[3].

---

(1) الرحلات، د/شوقي ضيف ص15.

(2) المصدر السابق ص 18.

(3) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، محمد بن أحمد المقدسي ص114 -115.

(طبرية)

«أهل طبرية شهرين يرقصون، وشهرين يُقمقمون، وشهرين يثاقفون، وشهرين عُراة، وشهرين يزمرون، وشهرين يخوضون، يعني: يرقصون من كثرة البراغيث ويلوكون النبق[1]، ويطردون الزنابير عن اللحم والفواكه بالمذاب، وعُراة من شدة الحر، ويمصون قصب السكر، ويخوضون الوحل»[2].

(خِصاء الخدم[3])

«والخدم الذين ترى على ثلاثة أنواع: جنس يُحملون إلى مصر، وهم أجود الأجناس. وجنس يُحملون إلى عدن، وهم البربر، وهم شرُّ أجناس الخدم. والجنس الثالث على شبه الحبش.وأما البيض فجنسان: الصقالبة وبلدهم خلف خُوارزم، إلاّ أنهم يُحملون إلى الأندلس فيُخْصون، ثم يخرجون إلى مصر. والروم يقعون إلى الشام وأقور، وقد انقطعوا بخراب الثغور. وسألت جماعة منهم: كيف يُخصون؟ فتحصل لي أنّ الروم يسلُّون أولادهم، ويحرزونهم على الكنائس، لئلا يُشغلوا بالنساء، وتؤذيهم الشهوة. وكان المسلمون إذا غزوا أغاروا على كنائسهم، وأخرجوا الصبيان منها. وأما الصقالبة فإنهم يحملون إلى مدينة خلف بجالة. أهلها يهود، فيُخصونهم. واختلفوا على هذا: فقال بعضهم: يُمسح القضيب والمِزْودان في مرةٍ واحدة.وقال بعضهم: يشق المزودان، وتُخرج البيضتان، ثم تُجعل تحت القضيب خشبة، ويقطُّ من أصله. وسألت عُريب الخادم - وكان من أهل العلم والصدق - فقلت : أيها المعلم، أخبرني عن أمر الخدم، فإن العُلماء قد اختلفوا فيهم، وأبوحنيفة يجعل لهم فراشاً، ويلحق بهم ما تلد نساؤهم.وهذا علم لا يُستفاد إلاّ منكم. قال : صدق أبو حنيفة -

---

(1) يقول غازي طليمات: النبق كما شرحه المقدسي ثمر على قدر الزعرور فيه نواة كبيرة.

(2) أحسن التقاسيم ص 150.

(3) العنوان من المصدر السابق، تحقيق غازي طليمات.

رحمه الله ـ وسأخبرك بحالهم. اعلم أنهم إذا قُربوا للاختصاء شُق الخصوتان، فأخرجت البيضتان، فربما فزع الصبي، فصعدت إحدى البيضتين إلى جوفه، وطلبت فلم توجد في الوقت، ثم تنزل بعدما التحم الشق. فإن كانت اليُسرى كانت له شهوة ومنيّ، وإن كانت اليُمنى خرجت له لحية، مثل فلان وفلان. فأبو حنيفة ـ رحمه الله ـ أخذ بقول النبي صلى الله عليه وسلم : «الولد للفراش» وجاز أن يكون من الخدم الذين بقيت بيضتهم. وذكرت قوله لأبي سعيد الجوري بنيسابور قال: قد يجوز هذا، لأن إحدى بيضتي صغيرة. وكانت لحيته نزراً خفيفة. وإذا خَصوهم جعلوا في منفذ البول مِرْود رصاص، يُخرجونه أوقات البول إلى أن يبرؤوا كيلا يلتحم»[1].

(في بلاد الديلم)

«كنتُ في بعض الخانات فإذا بصبية تعدو، ورجل شاهر سيفه يعدو خلفها، يروم قتلها. فقلتُ : ما فعلت حتى استوجبت القتل؟ قال: إنها زوجت إلى غيرنا، وقتلُ من فعل ذلك واجب عندنا. وإذا كان لهم مأتم كشفوا رؤوسهم واجتمعوا، وقد التف المعزّي والمُعزى في الأكسية، وأداروها على رؤوسهم ولحاهم. ولهم أسواق على أيام الجمعة في السهل، لكل قرية يوم، فإذا فرغوا انحاز الرجال والنساء إلى معزل يتصارعون فيه، ورجل جالس معه الحبل، كلّ من غلب عقد له عقدةً. فإذا هوى الرجل امرأة راح معها، فيتلقاه أهلها بالبشر والترحيب، ويتباهون به إذا رغب في كرمهم فيضيفونه ثلاثة أيام، ثم ينادي المنادي بعد ما اجتمع معها أسبوعاً في عمارةٍ له بمعزل، فيجتمعون ويختطون. وسألت أبا نابتة الأنصاريّ، قلت: هل يُصيبها قبل العقد؟ قال : لو علموا بذلك قتلوه»[2]

(1) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، محمد بن أحمد المقدسي ص210 -211.

(2) المصدر السابق ص249 -250.

(عجائب الدنيا)

«عجائب الدُنيا ثلاث: منارة الإسكندرية وقنطرة سنجة[1]، وكنيسة الرها. فلمّا بُني المسجد الأقصى جُعل بدل الكنيسة، فلمّا هدمته الزلزلة جُعل موضعه جامع دمشق. وهذه القنطرة على خمسة فراسخ من جبل الجوديّ، كبيرة شاهقة مُتصلة بالجبل على حجر مخوّخ مركبة، إذا زاد عليها الماء اهتزّت»[2].



منارة الإسكندرية



(1) يقول غازي طليمات: سنجة نهر بديار مضر.

(2) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، محمد بن أحمد المقدسي، تعليق وتقديم/غازي طليمات ص137.

محمد البيروني

(362 -440هـ)

محمد بن أحمد البيروني..علامة، أديب، فيلسوف، رحالة ..يُكنى أبا الريحان، ..(أكبر رحالة فيلسوف عند العرب في القرن الخامس الهجري، «الحادي عشر الميلادي»)[1] ولد سنة 362هـ و(برز كأكبر شخصية علمية إبان النصف الأول من القرن الخامس الهجري، إلى حد أن أطلق جورج سارتون - وهو مؤرخ تاريخ العلوم الشهير- على النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي اسم «عصر البيروني»)[2]، (وهو فارسي من إقليم خوارزم)[3]، ورغم فارسيته[4] إلا أنه (من ذوي العقول المُتفلسفة الكبيرة التي يفخر بها العرب)[5]، (ولقد أجمع الباحثون العرب والمستشرقون على علوّ شأن البيروني بين الرحالة العرب والمؤرخين المسلمين، وأن منهجه قد تميز على غيره في كثيرٍ من الأمور حتى اعتبره البعض منهجاً



---

(1) الرحلات، د/شوقي ضيف ص 65، أدب الرحلات، د/حسين فهيم ص126 بتصرف.

(2) أدب الرحلات، ص 65 -66.

(3) الرحلات، ص 65.

(4) لم تكن عند البيروني نزعة شعوبية تجاه العرب كما ادعى بعض المستشرقين ، بل كان على العكس من ذلك تماماً محباً للعرب وللغة العربية التي جعل منها لغة العلم والحضارة ، وأزرى على لغته الأم(الفارسية) ورأى أنها ((لا تصلح إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية)) وانظر كتاب أبو الريحان البيروني، للدكتور عمر فاروق الطباع والأستاذ عبد المنعم الهاشمي ص58 - 59.

(5) المصدر السابق.ص69

علمياً في وصف ودراسة الحضارات الإنسانية)[1]وقد كانت وفاته سنة 440هـ، بعد رحلة حياةٍ كانت حافلةً بالعطاء العلمي المنقطع النظير.

. وصف رحلته :

للرحالة البارز محمد البيروني كتاب نفيس في فن الرحلة العلمية أسماه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» وهو نتاج رحلة علمية قام بها إلى الهند بعد أن (صحب السلطان محموداً الغزنوي في فتوحاته المشهورة بالهند، واستقر فيها أربعين عاماً يدرس ويفحص، واستطاع أن يتعلم لغتها القديمة السنسكريتية)[2] وكانت علاقة البيروني بالسلطان الغزنوي قوية، وكان الغزنوي يعرف منزلة البيروني العلمية، فلذلك (جاء به من خوارزم إلى غزنه[3])، و(انضم البيروني إلى ركب السلطان - المذكور - عند فتحه للهند، وقام برحلات وتجولات بالهند)[4] وكتابه الآنف الذكر(ليس رحلة بالمعنى الذي نعرفه في كُتب الرحلات، وإنما هو موسوعة لجغرافية الهند وتاريخها ومعارفها في العلوم وخاصة الرياضة والفلك .ويتحدث في - رحلته هذه - عن قضائهم وعقوباتهم وكفاراتهم وما عندهم من تأديب وتغريم ومواريثهم وحرقهم لموتاهم وصيامهم وأعيادهم وأفراحهم وأيامهم المُعظمة وأوقاتهم المسعودة والمنحوسة لاكتساب الثواب ومجامعهم وأنهارهم المُقدسة وما يؤمنون به من أحكام النجوم، وكل ما يسمهم في عاداتهم وطباعهم. وهو يفيض في ذلك إفاضة الفيلسوف البصير، الذي يعرف كيف يُلاحظ وينقد، مع دقة التفكير وعُمقه)[5] (ويعد الكتاب وثيقة تاريخية إثنوجرافية)[6] وكما يقول

---

(1) المصدر السابق.95

(2) الرحلات، ص 65.

(3) أدب الرحلات، ص 66 بتصرف.

(4) المصدر السابق ص 126 بتصرف وزيادة.

(5) الرحلات، ص 65 -66 بتصرف.

(6) أدب الرحلات، ص 66.

أحمد الساداتي فإن (البيروني لم يدرس طبيعة هذه البلاد وأحوال سُكانها فحسب، بل درس كذلك لغتها وآدابها في مختلف بيئاتها، ووقف بنفسه على رسومها وتقاليدها. وهو فيما يكتبه عنها يعتمد على ما شاهده بنفسه وسمعه بأذنيه أكثر مما يعتمد على ما قرأه)[1] بل (إن البيروني قد وضع أساساً منهجياً هاماً تشكلت على أساسه انطلاقة «الدراسات الحقلية الإثنوجرافية» التي أدّت بدورها إلى نقلة كُبرى من الاتجاه النظري التطوري في دراسة الحضارة الإنسانية)[2] (وكان البيروني مُحيطاً إحاطة جيدة بمعارف عصره، الأمر الذي انعكس على مادة كتابه عن الهند، وكُتبه الأُخرى على حدٍ سواء)[3]، وكما كان البيروني رحالة ومؤرخاً وفيلسوفاً، فقد كان كذلك عالماً اثنوجرافياً[4]، ومن واضعي ومؤسسي هذا العلم الذي أصبح له كليات ومناهج خاصة في عصرنا الحاضر، وأصبح من العلوم الهامة لدراسة الحضارات وخصائصها المختلفة.

. نصوص مُختار من رحلته .

(طعام أهل الهند)[5]

«الإماتة في الأصل محظورة عليهم بالإطلاق، كما هي على النصارى والمانوية[6]، ولكن الناس يقومون[7] إلى اللحم وينبذون فيه وراء ظهورهم كل

(1) المصدر السابق، ص 66.
(2) المصدر السابق، ص 66.
(3) المصدر السابق، ص 67.
(4) المصدر السابق، ص 64.
(5) العنوان للدكتور/حسين فهيم، عن كتابه (أدب الرحلات) ص 149.
(6) المانوية هم أعوان الملوك من البراهمة، يقول الدكتور عبد الله عبد الغني غانم في كتابه الرواد المسلمون ص207: ((تعاليم مانو نصت على تقديس طبقة رجال الدين من البراهمة وأوجب على الملوك احترامهم وجعلت أملاكهم مقدسة لا يعتدى عليها وهم أعوان الملك في سلطانهم الثيواقراطي المستمد من الإله برهماً أما الملك نفسه فهو مقدس بل مؤله))أهـ. بتصرف يسير.
(7) في كتاب الرحلات لشوقي ضيف ص 66 (يقرمون).

أمر ونهي، فيصير ما ذكرناه مخصوصاً بالبراهمة[1] لاختصاصهم بالدين ومنع الدين إياهم عن إتباع الشهوات، كالمثال فيمن هو فوق أساقفة النصارى من مطران وجاثليق، وبطرق دون من يسفل عنهم من قس، وشماس إلا من تبرهن منهم زيادة على رتبته، وإذا كان الأمر هذا أُبيحت الإماتة بالتخنيق، وإمساك النفس في بعض الحيوان دون بعض، وحرمت الميتة من المباحات إذا ماتت حتف أنفها، فأما المباحات فهي الضأن والمعز والظباء والأرانب و«كندة» القرني الأنف والراريج (الفراريج) والحمام والطواويس وما لا تعافه النفس مما لم يرد به حظر، والمنصوص على تحريمه البقر والخيل والبغال والأحمرة والأبعرة والفيلة والدجاج الأهلية والغربان والببغاء والشارك وبيض جميعها بالإطلاق والخمر إلا لشودر[2]، فإن شُربها مباح له وبيعها محظور عليه كبيع اللحم، وقد قال بعضهم إن البقر كان قبل «بهارث» مباحاً، ومن القرابين ما فيه قتل البقر إلا أنه حرم بعد بهارث لضعف طباع الناس عن القيام بالواجبات كما جعل «بيذ»[3] وهو في الأصل واحد أربعة أقسام تسهيلاً على الناس، وهذا كلام قليل المحصول فإن تحريم البقر ليس بتخفيفٍ ورخصة، وإنما هو تشديد وتضييق، وسمعت غير هؤلاء يقولون: إن البراهمة كانت تتأذى بأكل لحمان البقر، لأن بلادهم جروم، وبواطن الأبدان فيها باردة والحرارة الغريزية

---

(1) البراهمه هم رجال الدين وهم حسب النظام الديني للهندوس يأتون في الدرجة الأولى بين طبقات أبناء المجتمع الهندي كما يشير لذلك الدكتور عبد الله غانم والذي يضيف قائلاً : ((وأشرف الطبقات الهندية هي طبقة البراهمة ويزعم البراهم أنهم خلقوا من رأس (براهم) وحيث خلقوا من رأس براهم فهم نقاوة الجنس ولذلك المجتمع الهندي يرى البراهمة على أنهم خير البشر)) عن كتاب (الرواد المسلمون) ص 207.

(2) الشوادر يأتون في الطبقة الرابعة من طبقات المجتمع الهندي ويطلق عليهم لقب الخدم وانظر الرواد المسلمون ص207 وص 212 0

(3) بيذ، كما يقول الدكتور عبد الله غانم : ((كتاب مقدس عند الهنود نسبوا ما جاء به إلى الله تعالى على لسان براهم ويتلوه البراهمة)) عن الرواد المسلمون ص 211 هامش رقم 1.

فيها فاترة، والقوة الهاضمة ضعيفة يقوونها بأكل أوراق التنبول عقب الطعام ومضغ الفوفل، فيلهب التنبول بحدته الحرارة وينشف ما عليه من النورة البلة، ويشد الفوفل الأسنان واللثة ويقبض المعدة، ولمّا كان كذلك حظروه للغلظ والبرودة»[1].



(1) أدب الرحلات، د / حسين فهيم ص 149 - 150، الرحلات، د / شوقي ضيف ص66 .

أبو حامد الأندلسي

(474 -564هـ)

أبو حامد محمد بن عبد الرحيم المازني الأندلسي[1] (أحد الرحالة الأندلسيين، عاش أكثر حياته في القرن السادس الهجري (474 -564هـ /1080 -1169م) وشغف بالرحلة، فطاف بإفريقية الشمالية وصقلية، وزار مصر والشام والعراق، وتحول إلى ناحية البحر الأسود(بحر الخزر) وتوغل في بلاد البلغار على ضفاف نهر الفولجا بلاد الصقالبة وإقليم باشغرد الواقع بين البلغار والقسطنطينية)[2].

. وصف رحلته :

وكانت نتيجة رحلته إلى البلدان الآنفة الذكر كتاب بعنوان (تُحفة الأصحاب ونُخبة الإعجاب)، (ونشر بعض المستشرقين ما شاهده ـ أبو حامد ـ في شرق أورُبة، وقد روى كثيراً من الأخبار عن الأقاليم الممتدة شمالي البلغار إلى المحيط المتجمد الشمالي، وهو يُسميها «ويسوا» و«يورا» ويعود أبو حامد من هذه الديار مولياً وجهه نحو الشرق، ويصل إلى إقليم خوارزم)[3] وله كتاب آخر في فن الرحلة بعنوان (المُعرب في عجائب المغرب).

. نصوص مُختارة من رحلته .

(بلاد الصقالبة)

«ولما دخلتُ إلى بلاد الصقالبة[4] خرجت من بلغار وركبت سفينة في نهر

---

(1) أعلام الجغرافيين العرب، د/ عبدالرحمن حميده ص 299.

(2) الرحلات، د/شوقي ضيف ص 51.

(3) المصدر السابق ص51 وص 56.

(4) يقول الدكتور عبد الرحمن حميده في كتابه أعلام الجغرافيين العرب ص 304: (الصقالبة عند الجغرافيين العرب تعني السلاف ويشمل ذلك سكان روسيا ويوغسلافيا وبولندا).

الصقالبة وماؤه أسود مثل ماء بحر الظُلمات (المحيط الأطلسي) كأنه الحبر، وهو مع ذلك حلو طيب صاف، ليس فيه سمك، وفيه الحيات السود الكبار، بعضها على بعض، أكثر من السمك، لا تُؤذي أحداً. وفيه حيوان مثل السّنور الصغير، له جلد أسود يُسمى سَمُّور الماء تُحمل جلوده إلى بلغار[1]... ولما وصلت إلى بلادهم رأيت بلاداً واسعة، كثيرة العسل والحنطة والشعير والتفاح الكبير.. ويتعاملون بينهم بجلود السنجاب القديم الذي لا شَعر عليه... وللصقالبة سياسات عظيمة، إذا تعرض أحد لجارية غيره أو ولده أو دابته أو تعدى بأي شيءٍ من التعدي كان، أُخذ من المُتعدي جُملة من المال، فإن لم يكن له مال بيع أولاده وبناته وزوجته في تلك الجناية، فإن لم يكن له أهل ولا أولاد بيع هو، فلا يزال عبداً يخدم من يكون عنده حتى يموت... وبلادهم آمنة، وإذا عامل المسلم منهم أحداً وأفلس الصقلبي بيع هو وأولاده وداره، ويُعطى لذلك التاجر دينه، والصقالبه شُجعان، وهم على مذهب الروم في النصرانية، نسطورية.. وحُدّثت عنهم أنهم كلّ عشر سنين يكثر السحر [عندهم] وتفسد عليهم نساؤهم بالعجائز السحرة، فيأخذون كل عجوز في ولايتهم، فيشدون أيديهن فأرجلهن ويلقونهن في النهر، فكل من رسبت من العجائز في الماء تركوها، وعلموا أنها ليست بساحرة، والتي تطفو على الماء يُحرقونها بالنار»[2].

(1) يقول الدكتور عبد الرحمن حميده : (ربما يقصد بالحيات سمك الحنكليس النهري وبالحيوان المماثل للسنور ثعلب الماء وبالفرنسية Loatre ونهر الصقالبة على الغالب هو نهر الدانوب والغالب أنه كان يصف منطقة دلتا الدانوب على السواحل الرومانية) عن أعلام الجغرافيين العرب ص 303.

(2) تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب، أبو حامد الأندلسي، نقلاً عن المصدر السابق ص 55 ـ 56 وص 54.

(ملك با شغرد)[1]

«ملك باشغرد[2] يُسمى كزالى، وملكه أعظم من ملك صاحب الروم أضعافاً مُضاعفة، لا تُحصى جنده، وولايته أكثر من ولاية الروم عشرين يوماً وأكثر، وهو على مذهب الإفرنج (يُريد أنه مسيحي) لأنه تزوج منهم، ويغزو بلاد الإفرنج ويَسبيهم، وجميع الأمُم يُخافون من شره لكثرة جنده وشدة بأسه... ولما سمع أنني منعت المسلمين من شرب الخمر، وأبحت الجواري وأربعة من الحرائر قال: ((ليس هذا من العقل، لأن الخمر يقوي الجسد، وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر، ودين الإسلام لا يكون على وفق العقل)).

قال: فقلت للترجمان ((قل للملك: شريعة المسلمين ليست مثل شريعة النصارى. النصراني يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ولا يسكر، والمسلم الذي يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر، فيذهب عقله، ويصير كالمجنون: يزني، ويقتل، ويكفر، ولا خير عنده. وقد يعطي سلاحه وفرسه. ويضيع ماله في سبيل لذته. والمسلمون ها هنا جنده، وإذا أمرت الواحد بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال، لأنه أهلكه في الشراب. وأما الجواري والنساء فإن المسلمين يوافقهم النكاح لحرارة طباعهم، وأيضاً فهم جنده، فإذا كثر أولادهم كثر جنده. فقال: اسمعوا من هذا الشيخ، فإنه عاقل، وقال: تزوجوا ما شئتم ولا تخالفوه 000 وتزوج (حامد)[3] بامرأتين من بنات المسلمين المحتشمين، ورزق أولاداً، وهو شجاع فاضل، كنت اعطيه على كل مسألة يحفظها في حال صغره نصف دانق 000 وفي

---

(1) إقليم باشغرد يقع بين البلغار والقسطنطينية كما يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه (الرحلات).

(2)الباشغرد كما يقول الدكتور عبد الرحمن حميده: أصولهم من البلغار الذين كان موطنهم الأول حوض نهر الفولغا. ومن بقي منهم هناك يعرف اليوم باسم (الباشكير) عن أعلام الجغرافيين العرب ص 305 الهامش.

(3) حامد هو ابن رحالتنا الاندلسي.

باشغرد بقر وحشية[1] كبار أمثال الفيلة، جلد الواحد منها حمل بغلين قويين ورأسه حمل عَجَله، يصطادونه ويُسمى التيتل وهو من أعجب الحيوان، طيب اللحم، سمين، وقرونه كبار طوال مثل أنياب الفيلة» [2].

(أهل ويسوا ويورا)[3]

«وأهل ويسوا ويورا يُمنعون في الصيف من دخول بلاد بلغار[4]، لأنه إذا دخل في تلك الديار منهم واحد في شدة الحر يبرد الهواء والماء مثل الشتاء، وتفسد على الناس زروعهم! وهذا مجرب عندهم! وقد رأيت في بلغار زمان الشتاء جماعة منهم حُمر الألوان زرق العيون، شعورهم مثل الكتان إلى البياض، يلبسون ثياب الكتان في ذلك البرد، ويكون على بعضهم فراء من جلود القندز الجياد. وشَعر ذلك القندز إلى الخارج مقلوباً، ويشربون ماء الشعير الحامض مثل الخلّ، فيوافقهم لحرارة مزاجهم، لأكلهم لحم القندز والسنجاب والعسل»[5].



---

(1) يقول الدكتور عبد الرحمن حميدة: ((وهو البقر الوحشي المنقرض والذي يُدعى أوروك والذي يماثل البقر الوحشي المسمى بيزون في أمريكا الشمالية)) عن كتاب أعلام الجغرافيين العرب ص 306.

(2) المصدر السابق ص55 – 56

(3) في كتابه (الرحلات) ص56، يحدد الدكتور شوقي ضيف مكان (ويسوا ويورا) فيقول: إنها أقاليم ممتدة شمالي البلغار إلى المحيط المتجمد الشمالي.

(4) حكاية منع أهل ويسوا ويورا من دخول البلغار وتطير البلغاريون بهم، يعلق عليها الدكتور شوقي ضيف قائلاً: (إن مَلَكة النقد للأخبار عند أبو حامد الاندلسي لم تكن واسعة). وانظر ص 56 من كتاب الرحلات للدكتور/شوقي ضيف. ولا يمنع أن البلغار كانوا يتطيرون بهؤلاء القوم، لكن ما لا يُصدقه عاقل أن دخول واحد من هؤلاء الأقوام إلى البلغار يُغير الأجواء!

(5) المصدر السابق ص 54

الفتية المُغامرون

(القرن الرابع للهجرة)

الفِتية المُغامرون، كانوا ثمانية من الشباب، اتفقوا على قطع رحلة بحرية في بحر الظُلمات (المحيط الأطلسي)، ولم يُكتب لرحلتهم النجاح، وعُرفوا في القرن الرابع الهجري بالفتية المُغررين، ولهم قصة طريفة وشهيرة تكشف عن عشق العرب الأزلي (للسفر والرحلة) واكتشاف المجهول، يرويها لنا الأستاذ الدكتورشوقي ضيف فيقول: ((أما المحيط الأطلسي فإن العرب لم يلجّجوا فيه، إذ كان بعيداً عنهم، ومع ذلك يُظن أن عرب الأندلس اقتحموا هذا المُحيط، وإن كانوا لم يتغلغلوا فيه، بل إنه يوجد بين الباحثين من يظن أنهم وصلوا إلى أمريكا قبل كولومبوس[1].. وليس بين أيدينا ما يدل دلالة قاطعة على أن الأندلسيين قاموا بذلك فعلاً، على أنهم إن كانوا لم يقوموا به فإنهم هم الذين هيئوا له، إذ قاموا برحلات مختلفة على الساحل الإفريقي الغربي، وربما عرفوا جزائر أزورا وماديرا وكناري. وأمامنا من رحلاتهم في هذا المحيط الذي كانوا يُسمونه بحر الظلمات رحلة رواها الإدريسي في كتابه «نزهة المشتاق» إذ روى أنه لا يزال معروفاً إلى عصره في أشبونة (لشبونة) رحلة فتية غرروا بأنفسهم، فركبوا البحر المُظلم، وظلوا فيه أشهراً، ثم عادوا، وكان ذلك في القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي) وكان لا يزال باسمهم إلى وقته دَرب في مدينتهم سُمي باسمهم، وهم ثمانية رجال كانوا أبناء

---

(1) يقول الدكتور عبد الرحمن حميده : ((أتجهت بعض الأبحاث العلمية الحديثة إلى القول بأن المسلمين عرفوا أمريكا قبل كولومب وأشار أصحاب هذه النظرية إلى وجود كلمات عربية في لغة هنود أمريكا، وإلى أن كولومب وجد في رحلته الثانية زنوجاً وذهباً أفريقياً في جزر الهند الغربية وأن مدنية بعض الجماعات الهندية في أمريكا تشبه المدنية الإسلامية إلى حد كبير)) عن كتابه أعلام الجغرافيين العرب ص233 .

عمومه، أعدّوا مركباً كبيراً، وزودوه بالماء والمتاع، ثم دخلوا البحر مع هبوب الرياح الشرقية، وأجروا فيه مركبهم نحو أحد عشر يوماً، ولم يلبثوا أن انتهوا إلى بحرٍ مجهول غليظ الموج كدر الروائح كثير الربوش (الأعشاب) والضباب، فأيقنوا بالتلف، وسارعوا إلى تغيير وجهتهم، فداروا إلى الجنوب، وظلوا كذلك اثنى عشر يوماً، حتى وقعوا إلى جزيرة كثيرة الغنم، فرسوا عليها ونزلوا بها، ووجدوا بعض أشجار التين، ومياهها جارية، فاطمأنوا إلى المكان، وأخذوا شاة فذبحوها وأعدوها لطعامهم، ولكنهم لم يستطيعوا أكلها لمرارة لحمها، فعادوا إلى سفينتهم، وأقلعوا إلى الجنوب، وساروا اثنى عشر يوماً فتراءت لهم جزيرة فيها عمارة وحرث، فنزلوا بها، ولم يلبثوا أن رأوا رجالاً يحيطون بهم، أجبروهم على التسليم، وحملوهم معهم إلى مدينة رأوا بها رجالاً شُقراً، شعورهم سَبطة، وهم طوال القدود لنسائهم جمال عجيب، واعتقلوهم في دار، ظلوا بها ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع دخل عليهم رجل يتكلم بلسانهم العربي، فسألهم عن حالهم، وغايتهم، ومن أين جاءوا. فأخبروه بقصتهم، فطمأنهم ووعدهم خيراً، وقال لهم إنه تُرجمان الملك وفي اليوم التالي أُخذوا إلى حضرة هذا الملك، وسئلوا عن وجهتهم، فقالوا إنهم خرجوا في البحر لرؤية عجائبه وخوارقه، وليقفوا على نهايته. وضحك الملك حين سمع منهم ذلك، وقال لترجمانه: أخبرهم أن أبي أمر طائفة من عبيده أن يسيروا في البحر، ويُحاولوا أن يعرفوا شيئاً عما في داخله، وأنهم ساروا فيه شهراً، ثم عادوا بخُفي حنين، وقال الملك لترجمانه سكن جأشهم، وعِدهم خيراً. ثم أخذ بهم إلى معقلهم، فظلوا فيه إلى أن، نشطت الريح الغربية، فأخرجوهم في زورق بعد أن عصبوا أعينهم، وجروا بهم في البحر ثلاثة أيام، وأخيراً ألقوا بهم إلى شاطيء أرض لم يكونوا يعرفونها، وتركوهم مُكتفين، يبكون مصيرهم. وبينما هم في ضنك وسوء الحال إذ سمعوا ضوضاء وجلبة أناس، فصاحوا بأجمعهم، وسمعهم القوم، فأقبلوا عليهم، فوجدوهم على هذه الحال السيئة، فحلوا عنهم وثاقهم، وسألوهم عن شأنهم، فأخبروهم قصتهم،

وكانوا من البربر، فأعلموهم أن بينهم وبين بلدهم مسيرة شهرين . وبعد أهوال ومخاطرات وصلوا إلى بلدهم، فأطلق عليهم الناس اسم الفتية المغرّرين، يقصدون أنه غُرّر بهم في مجازفات ومغامرات غير مجدية. والمظنون أنهم وصلوا إلى بعض الجزائر في المحيط الأطلسي، ولعلهم وصلوا إلى جزائر أزورا وكناري، وقد دُفعوا إلى إفريقية، حيث التقوا بطائفة من البربر، ثم عادوا إلى ديارهم بعد أن ذاقوا وبال رحلتهم في بحر الظُلمات، بحر الألغاز والطلاسم.)[1]



(1) الرحلات، د/شوقي ضيف، ص44،42.

أسامة بن مُنقذ

(488 - 584 هـ)

أُسامه بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري[1]. رحالة شهير، و(أحد أبطال المعارك الصليبية، كان أديباً شاعراً، عاش في القرن السادس للهجرة (الثاني عشر الميلادي) وعُمر طويلاً (488 - 584هـ/1095 -1188م) وهو من قلعة شَيزر شمالي الشام وكان آباؤه أمراء هذه القلعة، وكان يُنازلهم الصليبيون ولهم معهم وقائع كثيرة، وجلّى أُسامه في غير موقعة). و (عاش أسامة شهماً فارساً، وزها مجاهداً مقاتلاً شجاعاً، ولمع أديباً وشاعراً، وتلهّى صياداً، وقضى الكثير من سني حياته جواباً . نشأ على ضفاف العاصي، وصرف معظم شبابه في البلاط النوري بدمشق، وفي قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة، وغالب سني كهولته في الديار الأتابكية بالموصل وفي حصن كيفى على نهر دجلة)

. وصف رحلته:

نزل أسامه بن مُنقذ (مصر، وأقام فيها مدة في أثناء الحُكم الفاطمي، وطاف ببلاد العرب والجزيزة، وكانت عنده موهبة قصصية، وكان دقيق الملاحظة، فسجل الحوادث التي عاش فيها بمسقط رأسه، وبمصر، وقص كثيراً عن الصليبيين، وكانوا يُجلونه، واتخذ منهم غير صديق)[1](ولا سيما الفرسان منهم في حين السلم وقاد عدة حملات على الصليبيين في فلسطين في حال الحرب).

وترك أُسامه بن مُنقذ كتاباً في الرحلة أسماه (الاعتبار)، و(هو المسرح الذي اختاره لتسجيل مُذكراته، وفي قصر الباب الأول فيه على حروبه

(1) المصدر السابق، ص 56 -57.

وأسفاره إلى دمشق ومصر ومشاهداته للصليبين في دياره أثناء الحرب وفي السلم، وهنا وهناك ينثر طرائف ما شاهده بنفسه في حروبهم، وكيف كان أهل الشام يذودون عن وطنهم بالنفس والنفيس. ومن أطرف ما في الكتاب حديثه عن طبائع الإفرنج وأخلاقهم، وهو يُصور ذلك في قالب قصصي يُوضح لنا فيه تأخرهم الثقافي وأنه لم يكن عندهم شيء من الفكر أو الفلسفة يقتبسها العرب عنهم، وسخر من طُرقهم في القضاء، وما يعتمدون عليه في محاكماتهم من المبارزة، ولاحظ على رجالهم نقص الغيرة على نسائهم)[1].

وفي كتابه (الاعتبار) أعطانا الفارس والرحالة أُسامه بن مُنقذ (صورة واضحة عن حياة الصليبيين حين استقروا في الشام وكونوا بها مستعمراتهم التي أزالهم عنها فيما بعد صلاحُ الدين وخلفاؤه من الأيوبيين والمماليك)[2].

. نصوص مُختارة من رحلته .

(عجائب طب الإفرنج)

«ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (بلدة في شمالي لبنان) كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يُداوي مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يُقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى! قال: أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دُمَّلة وامرأة قد لحقها نشاف (لعله جفاف اللبن في الرضاعة)[3] فعملت للفارس لُبَيخْة، ففتحت الدملة وصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب إفرنجي، فقال لهم: هذا ما يعرف شيء يداويهم! وقال للفارس: أيما أحب إليك، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة، قال: أحضروا لي

---

(1) السابق ص 57.

(2) المصدر السابق ص 59 -60.

(3)المصدر السابق ص 57.

فارساً قوياً وفأساً قاطعاً، فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحطّ ساقه على قطعة خشب كبيرة، وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة، تقطعها، فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة، فما انقطعت، وضربه ضربة ثانية، فسال مخ الساق، ومات من ساعته، وأبصر المرأة، فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان، احلقوا شعرها، فحلقوه، وعادت تأكل من مأكلهم: الثوم والخردل، فزاد بها النشاف. فقال: الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ الموسى وشق في رأسها صليباً، وسلخ وسطه حتى ظهر العظم وحكّه بالملح، فماتت في وقتها، فقلت لهم : بقى لكم إليّ حاجة؟ قالوا: لا!)[1].

(نساء الإفرنج)

«كل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا (سكنوا البلاد)[2] وعاشروا المسلمين. وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر، فيأخذ المرأة ويعتزل بها، ويتحدث معها والزوج واقف بناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طوّلت عليه خلاّها مع المتحدث ومضى. ودخلتُ في الحمام بمدينة صور، فجلست في خلوةٍ فيها، فقال لي بعض غلماني: في الحمام معنا امرأة. فلما جلست على المصاطب، وإذا التي كانت في الحمام قد خرجت، وهي مُقابلي قد لبست ثيابها، وهي واقفة مع أبيها، ولم أتحقق أنها امرأة، فقلت لواحد من أصحابي: بالله أبصر هذه امرأة هي؟ فالتفت إليّ أبوها، وقال: هذه ابنتي ماتت أُمها، ومالها من يغسل رأسها، فأدخلتها معي الحمام وغسلت رأسها، فقلت: جيدُ ما عملتَ، هذا لك فيه ثواب»[3].

---

(1) الاعتبار، أسامة بن مُنقذ نقلاً عن المصدر السابق ص 57 -58.

(2) الرحلات، د/شوقي ضيف ص 58.

(3) الاعتبار، أسامة بن مُنقذ نقلاً عن المصدر السابق ص 58.

(سباق العجائز)

«وحضرتُ بطبرية في عيد من أعيادهم ـ أي الإفرنج ـ وقد خرج الفُرسان يلعبون بالرماح، وخرجت معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما في رأس الميدان، وتركوا في رأسه الآخر خنزيراً سَمطوه وطرحوه على صخرة. وسابقوا بين العجوزين، ومع كل واحدة منهما سَرية (طائفة)[1] من الخيالة يشدون منها، والعجوزان تقومان وتقعان على كل خطوة، وهم يضحكون، حتى سبقت واحدة منهما، فأخذت ذلك الخنزير في سبقها»[2].

(الانتحار حفاظاً على الشرف)

«كان في جُند الجسر رجل كردي، يُقال له أبو الجيش، له بنت اسمها رفول، قد سباها الإفرنج، وهو قد توسوس عليها يقول لكل من لقيه يوماً: سُبيتْ رفول! فخرجنا من الغد نسير على النهر، فرأينا في جانب الماء سواداً، فقلنا لبعض الغلمان: اسبح وأبصر ما هذا السواد. فمضى إليه، فإذا ذلك السواد رفول عليها ثوب أزرق، وقد رمت نفسها من فوق فرس الإفرنجي الذي أخذها، فغرقت، وعلق ثوبها في شجرة صفصاف، فسكنت لوعة أبيها أبي الجيش»[3].



---

(1) الرحلات، د/شوقي ضيف ص58.

(2) الاعتبار، أسامة بن مُنقذ نقلاً عن المصدر السابق ص 58 -59.

(3) المصدر السابق ص 60.

الإدريسي

(493 – 562 هـ)

محمد بن محمد الإدريسي أبو عبدالله ..رحالة وجغرافي شهير (ولد في سبته سنة 493هـ/1099م، وتعلم في قُرطبة. ومن بيت بني حمود الذين تملكوا بعض بلدان الأندلس في القرن الحادي عشر)[1] (وتنتسب نسبته إلى الادارسة الذين طالبوا بأحقيتهم بالخلافة في مطلع القرن الهجري الثاني) وكانت وفاته سنة 562هـ/1166م.

. صفة رحلته:

ارتحل الإدريسي إلى (الأندلس والمغرب ومصر والشام وآسيا الصُغرى، وانتهى به المطاف إلى صقلية، وكان قد احتلها النورمان وأزالوا منها حُكم المسلمين، إلاّ أنهم عاملوهم بالحسنى، واشتهر بذلك أميرهم روجّر الثاني الذي كان يُعجب بالعرب وما أتقنوا من علومٍ ومعارف. واتصل الإدريسي بهذا الأمير فأعُجب كل منهما بصاحبه، وقد عرف فيه روجَر قدرته البارعة على رسم الخرائط ومهارته في علم الجغرافية، فلطب إليه أن يُؤلف فيها كتاباً له، فلم يهجم على التأليف مُباشرة، بل أنفذ طائفة من الرحالة إلى بُلدان متفرقة ليأتوه بالمعلومات، فكتبوا له تقارير بما شاهدوه، أضافها إلى ما شاهده بنفسه في البلدان، وجمع أكثر ما كُتب في هذا العلم، واتخذ من كل ذلك مادة لتأليف كتابه الذي سماه «نُزهة المشتاق في اختراق الآفاق» كما يُسمى باسم كتاب روجر لأنه أُلف من أجله، وقد نُقل إلى اللاتينية موجز له في القرن السادس عشر. ومُنذ هذا التاريخ يهتم بهذا الكتاب المستشرقون، إذ يرون في مؤلفه «إسطرابون» العرب وأكبر جغرافييهم على الإطلاق. ولم يُنشر الكتاب

---

(1) الرحلات، د/شوقي ضيف ص58.

إلى اليوم، إنما نُشرت قطع منه، وفي دار الكُتب المصرية منه نسخة مخطوطة. وزوّد الإدريسي كتابه بإحدى وسبعين مصوراً، ولذلك يُعد أعظم مصنفات العصور الوسطى في الجغرافية، وهو يتبع الطريقة العربية، طريقة العرض الجغرافي القائم على المشاهدة، وتفصيل أحوال الأُمم والسُكان، وبيان ما بكل بلدة من عجائب البنيان والآثار. ولا يقف بكتابه عند وصف العالم الإسلامي، بل يضم إليه وصفاً دقيقاً للعالم المسيحي في أوربة، مُفيداً من الرحالة الذين وضعهم روجر تحت إمرته، وقد أوفدهم إلى بلدان أوربة المختلفة، ونقلوا إليه كثيراً من المعلومات عن فرنسا وإيطاليا وألمانيا وأواسط أوربة وشرقها. وانتهى الإدريسي من تأليف هذا الكتاب سنة 548هـ/1153م وتُوفي روجر وخلفه غليوم الأول (1154ـ1166م) وألف له كتاباً آخر في الجغرافية سماه «روض الأنس ونُزهة النفس» أو كتاب «المسالك والممالك»)[1].

والإدريسي وإن كان من (أكبر جُغرافيي بلاد المغرب والأندلس)[2] فإنه في نفس الوقت من أكابر الرحالة العرب، ذلك لأن علوم الجُغرافيا في القديم كانت مُعتمدة على الرحلة وعلى مشاهدات الجغرافيين للبلدان والأصقاع المختلفة التي يزورونها ..يقول د/حسين محمد فهيم: (..وفي إطار الحديث عن الرحلة والتُراث الجغرافي، فلا يسعنا إلاّ أن نذكر أيضاً الأندلسي أبا عبدالله محمد بن محمد الإدريسي، صاحب كتاب (نُزهة المشتاق في اختراق الآفاق). فلقد أمدته رحلاته المتعددة في أجزاء من أوروبا، وأقاليم عديدة من البلدان الإسلامية بنبعٍ فياض من المعرفة الجغرافية زادها قيمة حسهُ الجغرافي ووصفه الجيد، ومهارته في صناعة وإعداد الخرائط. إن كُرته الفضية التي نقش عليها الأقاليم السبعة، وألحقها برسم عشر خرائط جيدة لكل قسم من هذه الأقسام قد تُوجت أعماله جميعها فأضحت نتاجاً فريداً في زمانه، الأمر الذي

(1) المصدر السابق ص 19 -21.
(2) المصدر السابق ص 19.

جعل البعض ينظرون إلى الإدريسي كأعظم جغرافي في العصور الوسطى على الإطلاق)[1].

.نص مختار من رحلته.

(مدينة طُليطلة)



«مدينة طليطلة من طلبيرة شرقاً، وهي مدينة عظيمة القطر، كثيرة البشر، حصنة الذات، لها أسوار حسنة، ولها قصبة فيها حصانة ومنعة وهي أزلية من بناء العمالقة. وقليلاً ما رُئي مثلها إتقاناً وشماخة بنيان وهي عالية الذرى، حسنة البقعة زاكية الرقعة وهي على ضفة النهر الكبير المُسمى تاجُه، ولها قنطرة من عجيب البنيان، وهي قوس واحدة، والماء يدخل تحت ذلك القوس كله بعنف وشدة جري. ومع آخر القنطرة ناعورة، ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً، وهي تُصعد الماء إلى أعلى القنطرة والماء يجري على ظهرها، فيدخل المدينة. ومدينة طليطلة كانت في أيام الروم دار مملكتهم وموضع قصدهم، ووجد أهل الإسلام فيها عند افتتاح الأندلس ذخائر كادت تفوق الوصف كثرة، فمنها أنه وُجد بها سبعون تاجاً من الذهب مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة، ووجد بها ألف سيف مجوهر ملكي، ووجد بها من الدُر والياقوت أكيال وأوساق (حمول) ووجد بها من أنواع آنية الذهب والفضة ما لا يُحيط به تحصيل، ووجد بها مائدة سُليمان بن داود وكانت فيما يُذكر من زمردة، وهذه المائدة اليوم في مدينة

---

(1) أدب الرحلات، د/حسين محمد فهيم ص 95 -96.

روما! ولمدينة طليطلة بساتين مُحدقة بها، وأنهار جارية مخترقة، ودواليب دائـرة وجنات يانعة وفواكه عديمة المثـال، لا يُحيط بهـا تكييـف ولا تحصيل، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة تكنفها»[1].

خريطة الإدريسي



(1) نُزهة المُشتاق في اختراق الآفاق، محمد بن محمد الإدريسي، نقلاً عن المصدر السابق ص 20 -21.

ابن حوقل

(القرن الرابع الهجري)

أبو القاسم محمد بن علي الموصلي البغدادي، الشهير بـ(ابن حوقل) ...جغرافي كبير، رحالة (نشأ في بغداد، وقرأ ما سبقه وعاصره من كُتب جغرافية، وشغف بهذا العلم، فصمم على أن يضع فيه كتاباً لا يأخذه من أفواه الناس ولا مما قرأه، وإنما يأخذه عن عينه ومشاهداته في العالم الإسلامي، فطاف بهذا العالم ثلاثين سنة)[1].وعده الدارسون على رأس قائمة (جُغرافيي القرن الرابع الهجري «العاشر الميلادي»)[2].

. وصف رحلته:

بعد طواف الرحالة والجغرافي ابن حوقل العالم الإسلامي لمدة ثلاثين سنة وضع كتابه «المسالك والممالك» (وتصادف أن تشيع، وكانت مصر يحكمها الفاطميون، فتحول داعياً لهم، واتجه بكتابه «المسالك والممالك» هذه الوجهة السياسية. ويتضح ذلك في حديثه عن البلاد التي كان يهم الفاطميين أن يستولوا عليها مثل الأندلس وصقليه)[3].

وشنع ابن حوقل في كتابه (المسالك والممالك) على الأندلسيين ورماهم (بالضعف في الحرب ونقص استعدادهم فيها ليزين للفاطميين فتح هذه البلاد. ولا يهمنا ذلك الآن، إنما تهمنا طريقته في الوصف الجغرافي، فهو يقف ليعطينا معلومات طريفة عن البلدان وهي معلومات رحالة يصف ما يشاهده وصفاً دقيقاً، ينقل إلينا فيه البلدة التي يصفها بكل ما فيها من أبنية وأسواق

---

(1) الرحلات، د/شوقي ضيف ص 12.

(2) المصدر السابق ص 12.

(3) المصدر السابق ص 12 -13.

وحمامات ومساجد ومطاعم وملابس وعادات)[1].

وكتابه (المسالك والممالك) (ليس كتاب سرد جغرافي، وإنما هو رحلة كبيرة في العالم الإسلامي، رحلة جغرافية بديعة)[2] وقد رفعه (إلى سيف الدولة الحمداني في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي)[3] التماساً لرعاية (سلطة سياسية وحمايتها)[4] وفي كتابه هذا (لا يصف سوى الممالك العريقة حضارة وتنظيماً سياسياً مثل الصين والهند وإيران وبلاد الروم، ..ويظل شاغله الرئيسي ومحور اهتمامه«بلاد الإسلام» وبخلاف ابن بطوطه آثر ابن حوقل عدم الخوض في الحديث عن البلدان الإفريقية باستثناء النوبة والحبشة)[5] لأنه يعتبرها بلداناً لا تمتلك حضارة.

وقد كانت لابن حوقل (ميول سياسية مُتسمة بتعاطف مع آراء فرقة المعتزلة)[6] (وقضى ردحاً من الزمن في قُرطبة إبان عصرها الأموي الزاهر، وأثناء حُكم أمين المؤمنين عبدالرحمن الثالث (912 -961م) [إلا أنه] وهو المشرقي المولد، [كان] يُطلق أحكاماً سلبية حول الأمويين في الأندلس..)[7].

ورغم أن ابن حوقل (يذم أهل الأندلس العرب والمسلمين)[8] إلا أنه (يعود فيكيل المديح لغنى بلادهم وتقدمها وازدهار مُدنها وتطورها. وهكذا فإن المقياس لم يكن دائماً الانتماء إلى الإسلام أو الإزدهار العمراني. ونجد أن العامل السياسي لعب دوراً أساسياً في اطلاق الأحكام على الشعوب والأُمم

---

(1) المصدر السابق ص 14 -15.

(2) الرحلة العربية الحديثة، د/يوسف الشويري، ص 13.

(3) المصدر السابق ص 13.

(4) المصدر السابق ص 13.

(5) المصدر السابق ص 13.

(6) المصدر السابق ص 13.

(7) المصدر السابق ص 14 وما بين معكوفين من عندي للتوضيح.

(8) المصدر السابق ص 14.

ويعتقد البعض أن ابن حوقل مثلاً كان عميلاً للفاطميين في القاهرة أو العباسيين في بغداد[1]، وهذا ما دفعه إلى تصوير الانحطاط المعنوي والثقافي للأندلس وذلك بُغية إغراء أسياده بسهولة فتحها)[2].

. نصوص مختارة من رحلته .

(الأندلس)

« الأندلس جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر، وطولها دون الشهر في عرض ونيف وعشرين مرحلة، ويغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر، والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر إلى أسباب التملك الفاشية في أكثرهم، ولما هُم به من رغد العيش وسعته وكثرته، يملك ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم، لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم، ويسار ملكهم وقلة شغله وسقوط تكلفه بشيء يحذره وحالٍ يخافه، إذ لا خوف عليه ولا رقبة لأحدٍ من أهل جزيرته، مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله. ومما يدل بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضريبتها في كل سنة مائتا ألف دينار ...هذا إلى صدقات البلد وجباياته

---

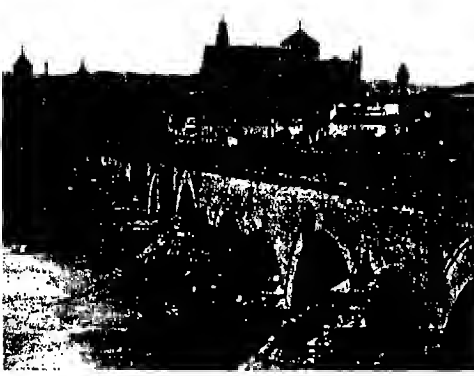
(1) يقول الدكتورعبدالرحمن حميده : ((أن اتصال ابن حوقل بالفاطميين دعا بعض المستشرقين، مثل دوزي الهولندي، إلى اتهامه بالتجسس لحسابهم في الاندلس، لأن هؤلاء كانوا في البداية يتطلعون يقول الدكتورعبدالرحمن حميده : ((أن اتصال ابن حوقل بالفاطميين دعا بعض المستشرقين، مثل دوزي الهولندي، إلى اتهامه بالتجسس لحسابهم في الاندلس، لأن هؤلاء كانوا في البداية يتطلعون يقول الدكتورعبدالرحمن حميده : ((أن اتصال ابن حوقل بالفاطميين دعا بعض المستشرقين، مثل دوزي الهولندي، إلى اتهامه بالتجسس لحسابهم في الاندلس، لأن هؤلاء كانوا في البداية يتطلعون إلى الاستيلاء على تلك البلاد ، ولعلهم كانوا يمهدون لذلك بجمع المعلومات الضرورية عن تلك الأصقاع)) عن اعلام الجغرافيين العرب ص 174 ...، ومع ذلك تظل تهمة ابن حوقل بالعمالة والتجسس لصالح الفاطميين في مصر أو العباسيين في بغداد مجرد رأي لبعض الباحثين لا يستند للأدلة مقنعة، لكن الذي لا خلاف عليه أن ابن حوقل كان ينظر للأندلسيين نظرة استعلاء وازدراء وجردهم من الشجاعة والإقدام.

(2) المصدر السابق ص 14 -15.

وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والجوالي والرسوم على بيوع الأسواق. ومن أعاجيب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبُعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنداد والأبطال»[1]

(قُرطبة)

«أعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس بجميع المغرب عندي لها شبه في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادة .. وهي مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة ... ولها بابان مُشرعان في نفس السور إلى الطريق في نفس السور إلى الطريق الآخذ على الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعالي البلد، مُتصلة بأسافله من ربَضه، مُشتبكة أبنيتها مُحيطة بها مُستديرة عليها من شرقها وشمالها



وغربها... والأسواق والخانات والحمامات ومساكن العامة بربضها، ومسجد جامعها جليل والحَبس منه قريب. وقرطبة هذة بائنة بنفسها عن مساكن أرباضها ظاهرة، ودُرتُ بها في غير يومٍ في قدر ساعة..وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك وابتذال لجيد الثياب والكُسى وفراهة الكراع (الخيل) وكثرة الحلى، وإن لم يكن لها في عيون كثيرٍ من الناس حُسن بارع، فليس لجيوشهم حلاوة في العين ولا علم بآيين (قوانين) الفروسية وقوانينها ولا بالشجاعة وطرقها، وأكثر ظفر جيوشهم في القتال بالكيد، ومما يدل على ذلك أني لم أر قط بها أحداً أجرى على فرس فاره أو برذون

---

(1) المسالك والممالك، ابن حوقل نقلاً عن كتاب الرحلات للدكتور شوقي ضيف ص 13.

هجين ورجلاه في الركب، ولا يستطيعون ذلك ولا بلغني عن أحدهم، وكل ذلك لخوفهم من السقوط، إلى فشل فيهم عند لقائهم...»[1].

(في بلرم ..عاصمة صقلية)

«أكثر مياه لهذا! البلد من الآبار، وهي ثقيلة غير مُروية، وإنما صرفهم إلى شربها رغبة عن شُرب الماء الجاري العذب (الذي يجري حول بلدتهم)، قلةُ مروءاتهم وكثرة أكلهم البصل وفساد حواسهم لكثرة تغذيهم بالنبىء منه، وما فيهم من لا يأكله في كل يوم ..وفيها أزيد من ثلاثمائة معلم يُؤدِّبون الصبيان. وهم (أهل بلرم) يرون أنهم أفضلهم وأجلهم، وأنهم أهل الله وهم شهودهم وأمناؤهم، هذا على ما اشتُهر عن المعلمين من نقص عقولهم ..وإنما لجأوا إلى هذه الصناعة هرباً عن الجهاد ونُكولاً عن الحرب...»[2].



صقلية



---

(1) المصدر السابق ص13 -14.

(2) المصدر السابق ص14 - 15. وما بين معكوفين من عندي للتوضيح.

ابــن فضــلان

(القرن الرابع الهجري)

أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى ابن سليمان رسول المقتدر بالله وفاتح مصر ثم صار مولى للخليفة المقتدر بالله[1]. علامة، فقيه، أديب، رحاله .ولد في أواخر القرن الثالث للهجرة.(ولسنا نعرف من سيرته شيئاً كثيراً. ومن تحليل رحلته يظهر لنا أن الرجل كان على ثقافة دينية وأدب رفيع، وأسلوب جميل، وورع وخلق وحب لنشر الإسلام وصدق في الحديث، وعفة في الحال)[2]، وتظهر رحلته أنه (كان شاباً وسيماً مغامراً بدليل ما فعلته معه زوجة ابن قارن نديم الخليفة وجليسه. كما تكشف رحلته أنه كان متعلماً بدليل إختياره قراءة رسالة الخليفة المُقتدر على ملك الصقالبة والإشراف على الفقهاء والمعلمين كما ذكر هو نفسه أنه من أقرباء الخليفة)[3]

. وصف رحلته .

أرسله الخليفة العباسي المقتدر بالله سنة 309هـ على رأس بعثةٍ علميةٍ إلى بلاد البلغار، لتعليم أهلها الإسلام ..(وكثيراً ما كانت الأقاليم الجديدة [التي تدخل في الإسلام] تطلب بعثات دينية من بغداد، تُعلم الناس فروض الإسلام وما شرعه الله لمصلتحهم في دُنياهم وآخرتهم)[4] وبعثة ابن فضلان (من أقدم هذه البعثات التي طلبها ملك البلغار من الخليفة المقتدر، وكان كثير من البُلغار قد دخلوا في الإسلام، وكانوا يُقيمون حينئذٍ في حوض نهر الفولجا، أو

(1) الرواد المسلمون د/عبدالله عبدالغني غانم الجزء الأول ص 224.

(2) اعلام الجغرافيين العرب د/عبدالرحمن حميده ص 199 بتصرف وزيادة يسيرة.

(3) الرواد المسلمون د/عبدالله عبدالغني غانم الجزء الأول ص 225 بتصرف وزيادة يسيرة.

(4) الرحلات، د/شوقي ضيف ص49 وما بين معكوفين مني للتوضيح.

كما يُسميه العرب نهر أتلا)[1]. وكان مبتدأ خروج ابن فضلان مع الوفد المرافق له (من بغداد يوم الخميس 11صفر 309هـ / 21حزيران921م ووصلت إلى بلغار في 18محرم عام 310هـ / 12أيار 922م. وظل الوفد يصعد شرقاً وشمالاً ماراً بإقليم الجبال فهمذان، فالري، قرب طهران اليوم، ونيسابور ومرو، وساروا مع نهر جيحون (آموداريا) فبلغوا بخارى حيث التقى ابن فضلان في أيلول من عام 921م بوزير السامانيين والعالم الجغرافي الشهير بالجيهاني.ثم تابعت البعثة طريقها إلى خوارزم عند بحر آرال وعبرت هضبة أوست أورت ثم نهر يايق (ايمبا) فوصلت إلى حوض الفولغا، واستغرقت الرحلة أحد عشر شهراً في الذهاب، لاقى الوفد خلالها مصاعب جمة وأهوالاً مذهلة، وصفها ابن فضلان وصفاً جميلاً بارعاً يضعه في الصف الأول من الرحالة الأدباء)[2]

(وقام «ابن فضلان» بمهمته خير قيام، ثم عاد بعد مُدة إلى بغداد، فوضع كتاباً في وصف رحلته إلى القوم، وألم إلماماً دقيقاً بأحوالهم وعاداتهم وبكل ما بديارهم من مظاهر الحضارة والعُمران،ولم يصف شعبَ البلغار وحده، بل وصف أيضاً الخزر والروس، وعرض لكثير من أحوالهم التي تدل على تأخرهم، ووقف



من معالم بلغاريا

(1) المصدر السابق، ص49 بتصرف.

(2) أعلام الجغرافيين العرب د/عبدالرحمن حميده ص200.

طويلاً عند وصف حَرْقهم لموتاهم، واحتفالاتهم لحرق رؤسائهم، وما يصنعون في ذلك من رسوم غريبة وهذه الرحلة هي رمز لرحلات العرب في أوربة)[1].

وقد نالت رحلة ابن فضلان شُهرةً واسعة (وليس هناك ـ في حدود علمنا ـ من رحلة مماثلة في شُهرتها التاريخية وأهميتها الإثنوجرافية لما قام به ابن فضلان عام 309هـ إلى بلاد التُرك والخزر والصقالبة)[2].

ولم يتحدث ابن فضلان في رحلته (عن تفاصيل مهمته ونتائجها إلا أنه ترك صورة واضحة للبلغار وحضارتهم وعاداتهم وتجاراتهم)[3] وإلى جانب تعليم المسلمين البلغار أمور دينهم فقد بنى لهم ابن فضلان مسجداً، تنفيذاً لرغبة ملكهم.

ـ نصوص مخُتارة من رحلته ـ

(الروس)

«رأيت الروسية وقد وافوا بتجاراتهم، فنزلوا على نهر أتلا، ولم أر أتم أبداناً منهم، كأنهم النخل، شقر حُمر، لا يلبسون القراطق (القُمصان) ولا الخفاتين (ضرب من الثياب) ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شِقيه، ويُخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحد فأس وسكين وسيف ..وكل امرأة منهم على ثديها حق مشدود فن حديد أو من نحاس أو من فضة أو من ذهب على قدر حال زوجها»[4].

(في تركستان)

«أقمنا بالجرجانية أياماً، وجمد نهر جيحون من أوله إلى آخره وكان

---

(1) المصدر السابق، ص 49 -50 بتصرف.

(2) أدب الرحلات، د/حسين محمد فهيم، ص 200 -201.

(3) المصدر السابق، ص 216.

(4) الرحلات، د/شوقي ضيف ص50.

سمك الجمد سبعة عشر شبراً وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطريق، وهو ثابت لا يتخلخل، فأقام على ذلك ثلاثة أشهر. فرأينا بلداً ما ظننا إلا أن بابا من الزمهرير قد فُتح علينا منه، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة. وإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه. وأراد بره قال له (تعال إلي حتى نتحدث فإن عندي نار طيبة) هذا إذا بالغ في بره وصلته. إلا أن الله تعالى قد لطف بهم في الحطب وأرخصه عليهم: حمل عجلة من حطب الطاغ بدرهمين من دراهمهم تكون زهاء ثلاثة آلاف رطل. ورسم سؤالهم أن لا يقف السائل على الباب، بل يدخل إلى دار الواحد منهم فيقعد ساعة عند ناره يصطلي، ثم يقول (بكند) يعني الخبز، فإن اعطوه شيئاً أخذ وإلا خرج.

وتطاول مقامنا بالجرجانية وذلك أنا أقمنا بها أياماً من رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وكان طول مقامنا من جهة البرد وشدته. ولقد بلغني أن رجلين ساقا اثني عشر جملاً ليحملا عليها حطباً من بعض الغياض فنسيا أن يأخذامعهما قداحة وحراقة وأنهما باتا بغير نار، فأصبحا والجمال موتى لشدة البرد. ولقد رأيت لهواء بردها بأن السوق بها والشوارع لتخلو حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع والأسواق، فلا يجد أحداً ولا يستقبله إنسان. ولقد كنت أخرج من الحمام، فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار)[1].



---

(1) أعلام الجغرافيين العرب د/عبدالرحمن حميده ص 201 -203. تعليق: هذا المقطع كما يقول الدكتورعبدالرحمن حميده من نبذة جاءت في رحلة ابن فضلان (عن قساوة الطقس الذي لاقاه أثناء اجتيازه بلاد التركستان في فصل الشتاء، ولا عجب فالمناخ الآرالي من أقسى المناخات القارية) عن المصدر السابق ص 201 بزيادة يسيرة.

الهــــرويّ

(القرن الخامس الهجري)

أبو الحسن علي بن أبي بكر[1] بن علي الهرويّ الموصلي ..رحالة عُرف بلقب السائح، عاش في القرن الخامس الهجري وتُوفي في بداية القرن السادس الهجري وبالتحديد سنة 611هـ/1214م. (وإذا كانت نسبته تدل أن أصل أسرته من هرات فقد ولد بالموصل وارتبطت حياته بالشطر الغربي من العالم الإسلامي وقد قضى معظم حياته في التجوال حتى لقب بالسائح)[2].

.وصف رحلته:

(وهو ممن طافوا بالعالم الإسلامي وقد زار القسطنطينية وصقلية وغيرها من جزائر بحر الروم، وعُني بتدوين تطوافه، ولكن من جهة خاصة، هي ما شاهده من المساجد والأبنية والعمارات والأصنام والآثار والطلسمات، وألف في ذلك كتاباً سماه «الإشارات إلى معرفة الزيارات». وربما اطلع على كتاب عبداللطيف البغدادي عن مصر فإنه تابعه في وصف آثارها ومعابدها وقبور فراعنتها وقال إنه دخل الهرم، غير أنه يختلف عن البغدادي في أنه لم يكن عالماً ناقداً ولا فيلسوفاً بصيراً، فملأ كتابه بالأساطير والخرافات)[3] وذكر صاحب كتاب «إعجام الأعلام» أن (السائح الهَروِيّ ..طاف البلاد، وأكثر الزيارات، وكاد يطبق الأرض بالدوران، فلم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً إلا قصده، حتى ضُرب به المثل فقيل في وصف سائل مُلِحٍ

أوراق كديته في بيت كل فتى   على اتفاق معان واختلاف روي

---

(1) يقول د/عبدالرحمن حميده في كتابه أعلام الجغرافيين العرب ص 390: وقيل أبي طالب.

(2) أعلام الجغرافيين العرب ص 390

(3) الرحلات، د/شوقي ضيف ص 67.

قد طبق الأرض من سهلٍ ومن جبل		كأنه خط ذاك السائح الهروي[1]

تُوفي سنة 611هـ بحلب ونسبته إلى هراة وهي بلد بخراسان)[2].

. نص مختار من رحلته .

الأهرامات

((الأهرام من عجائب الدنيا وليس على وجه الأرض شرقيها وغربيها عمارة أعجب منها ولا أعظم ولا أرفع ورأيت بديار مصر أهراماً كثيرة منها خمسة كبار والباقي صغار فأما الكبار فاثنان عند الجيزة واثنان عند قرية يقال لها دهشور وهرم عند قرية يقال لها ميدوم. وقد اختلفت أقاويل الناس فيها وفي من بناها وما أريد بها فمنهم من قال ((أنها قبور الملوك)) ومنهم من قال ((إنما عملوها خوفاً من الطوفان)). وهي مربعة على هذا المثال كل وجه الأرض تزيد على أربعمائة ذراع وارتفاعها في الجو يقارب أربعمائة بذراع العظم وينتهي رأس الهرم إلى مقدار ثمانية أذرع. وقيل أن المأمون فتح هرماً منها وهو أحد الهرمين اللذين عند الجيزة فوجدوا داخله بئراً مربعة في تربيعها أبواب يفضي كل باب منها إلى بيت فيه موتى بأكفانهم، وقيل أنهم دخلوا في رأس هذا الهرم بيتاً فيه حوض من الصخر على مثال القبر وفيه كالآدمي من الدهنج وفي وسطه إنسان عليه درع من ذهب مرصع بالجوهر وعلى صدره سيف لا قيمة له وعند رأسه حجر ياقوت كالبيضة ضوءه كالنار. ودخلت إلى هذا الهرم وصعدت إليه ورأيت هذا الحوض وأصح ما قيل إنما عملوها خوفاً من الطوفان وكنزوا فيها أموالهم ورقموا عليها علومهم فلم ينفعهم من ذلك شيء واندرست آثارهم وذهبت أموالهم وبقيت أخبارهم))[3].



---

(1) يقول ابن خلكان متكلماً عن الهروي : ((لم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه)) وهذان البيتان من الشعر قالهما جعفر بن شمس الخلافة في شخص يستجدي من الناس بأوراقه. عن أعلام الجغرافيين العرب ص 390.

(2) إعجام الأعلام، محمود مصطفى ص122.

(3) أعلام الجغرافيين العرب، د/عبدالرحمن حميده ص 393.

ابــــن جبيــــر

(540 -346 هـ)

محمد بن أحمد بن جُبير الكناني الأندلسي.. شاعر، أديب، رحاله ..(ولد ببلنسية سنة 540هـ/1145م وعني أبوه بتربيته، فدرس العلوم الدينية واللغوية، ولم يلبث أن تيقظت فيه مواهبه الأدبية، فأخذ في قرض الشعر ..وأصل أسرته من بلدة شاطبة)[1] ويُكنى بأبي الحسن .. وبعد أن (لمع اسمه، ألحقه حاكم غرناطة أبو عثمان سعيد بن عبدالمؤمن بُكتّاب ديوانه، وخَفَّ على نفسه، فكان يُحضره مجلس شرابه، وكان ينقبض عن



الشُرب، فألح عليه الحاكم أن يشرب معه، وأقسم عليه ليشربنَّ سبعاً، وجاراه، فشرب سبع كؤوس. وسُرّ الأمير، وملأ له الكأس بالدنانير سبع مرات، وصَبَّها في حجره، فأصرَّ في نفسه أن يُكفر عن سيئته، وأن ينفق هذه الدنانير في الحج إلى بيت الله، ولم يلبث أن أعلن عزمه لأبي عثمان، وأنه حلف بأيمان لا محيص له من البرّ بها، فأعانه على ما ابتغاه)[2] وكانت هذه الحادثة وراء قيامه برحلته المشهورة إلى المشرق.

---

(1) الرحلان، د/شوقي ضيف ص70.

(2) المصدر السابق.

. وصف رحلته.

(قامت شهرة ابن جبير على كتابه الذي عُرف باسمه رحلة ابن جبير، إذ أنه جاء ثمرة لرحلات ثلاث قام بها، أهمها رحلة استغرقت أكثر من ثلاث سنوات وقد بدأها في يوم الأثنين في التاسع عشر من شهر شوال سنة 578هـ. وختمها في يوم الخميس في الثاني والعشرين من شهر محرم سنة 581هـ. وقد جاء هذا الكتاب حافلاً بالمشاهد والتجارب التي اكتسبها أثناء تجواله في عجائب البلدان والمدن، ورؤيته لغرائب المشاهد، واطلاعه على الشؤون والأحوال السياسية والإجتماعية والأخلاقية التي كانت سائدة في تلك الحقبات من الزمن)[1] وابتدأ مسار رحلته من (غرناطه في 8 من شوال[2] سنة 578هـ/3فبراير سنة 1183م، وركب البحر في سفينة لبعض أهل جنوة قاصداً إلى الإسكندرية ونزل بها، وولى وجهه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر، فعيذاب حيث اجتاز البحر إلى جدة. واتجه من فوره إلى مكة، فأدى فريضة الحج، وزار المدينة، وظل في هذه البلاد المقدسة نحو ستة أشهر، ثم قصد إلى الكوفة، فبغداد فالموصل ولم يمر مروراً عابراً بهذه البلاد، بل كان يمكث بعض الوقت يدرس ويفحص. وانتقل إلى الشام، وكان للصليبيين فيها مستعمرات كثيرة، فجاس خلال ديارهم، وأخيراً ركب البحر من عكا عائداً إلى بلاده على مركب مسيحي، وألمت المركب بصقلية، فنزل فيها وطاف ببلادها، ثم رحل إلى بلاده ووصل إليها في 15 من المحرم سنة 581هـ/25 من أبريل سنة 1185م .ورحل ابن جبير إلى المشرق بعد هذه الرحلة مرتين، فإنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس واستيلائه عليه من

---

(1) رحلة ابن جبير، مقدمة لجنة تحقيق التُراث بدار ومكتبة الهلال البيروتية ص5 بتصرف.

(2) لجنة التُراث الآنفة الذكر حددت ابتداء رحلة ابن جبير في اليوم التاسع عشر من شوال، والأديب شوقي ضيف حدد اليوم في ثمانية شوال وكلاهما على صواب، ذلك لأن ضيف اعتبر بداية رحلة ابن جبير من غرناطه حين خرج منها في 8 شوال، وأما اللجنة فاعتبرت خروجه من جيان إحدى مدن الأندلس في 19شوال، مبتدأ مسار رحلته.

أيدي الصليبيين، فحدثته نفسه أن يزور هذه الأماكن وعَلَمُ الإسلام والعرب يرفرف عليها، ولم يلبث أن رحل رحلته الثانية في سنة 585هـ/1189م وعاد إلى بلاده في سنة 587هـ/1191م. وماتت زوجه فحزن عليها حُزناً شديداً، وقد خصها بديوان شعره، ولم يجد عزاءً إلا أن يُحج إلى بيت الله، فرحل رحلته الثالثة في سنة 614هـ/1217م وأقام بمكة مُدة، ثم تحول عنها إلى الإسكندرية، وأقام بها يُحدث ويؤخذ عنه إلى أن لبى نداء ربه)[1] وكانت وفاته سنة 614هـ/1217م[2].

.نصوص مختارة من رحلته.

(مستشفى للمجانين)

«ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان - يعني صلاح الدين الأيوبي - المارستان الذي بمدينة القاهرة. وهو قصر من القصور الرائقة حُسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً وعيّن قيماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف أنواعها. ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى، وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بُكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم. وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى. ولهن أيضاً من يكفلهن. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتُخذت محابس للمجانين. ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويُقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد. وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه»[3].

---

(1) الرحلات، د/شوقي ضيف ص70 -71 و ص 94.

(2) المصدر السابق.

(3) رحلة ابن جبير، اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك ص 24.

(نصارى جبل لبنان)[1]

«ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله ـ عزوجل ـ فتجب مشاركتهم. وهذا الجبل من أخصب جبال الدُنيا ، فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة ، وقلما يخلو من التبتيل والزهادة. وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض»[2].



جبل لبنان



(1) العنوان لابن جُبير.

(2) رحلة ابن جبير، اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة (المناسك ص24).



عبداللطيف البغدادي

(557 - 629 هـ)

عبـداللطيف بـن يوسـف بـن محمـد بـن علـي البغـدادي، موفق الـدين، (والمعروف باسم ابن اللباد وبابن نقطه والمطجن)[1] ..علامة، مؤرخ، لغوي، أديب، طبيب، فيلسوف، رحالة ..(ولد في بغداد في دار جده بدرب الفالوذج)[2] سنة 557هـ ..ترجم له الدكتور شوقي ضيف فقال: (عبداللطيف البغدادي، عالم بغدادي كبير كان واسع الثقافة، درس الفلسفة والطب وعلوم الدين واللغة، وترك مؤلفات كثيرة في كل فن، وطاف بالشام ومصر)[3] وكانت وفاته في بغداد (يوم الأحد ثاني عشر المحرم سنة تسع وعشرين وستمائة، ودفن بالوردية عند أبيه)[4].

. وصف رحلته :

زار الرحالة عبداللطيف البغدادي مصر وخراسان ودمشق والحجاز وحلب وبلاد الروم وارزنجان وارزن وديار آل كماخ ودبركي وملطيه وفلسطين، وأهم رحلاته هي التي قام بها إلى مصر أواخر القرن السادس الهجري، وجمعها في كتابٍ بعنوان: (الإفادة والإعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) وهذا (الكتاب طرفة من طرف الرحلات)[5] (ويقدم لنا وصف شاهد عيان عن مصر وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية ووصف حالتها العُمرانية وآثارها ومعالمها وطيورها ونباتاتها، ثم يصف لنا المجاعة الحاصلة

---

(1) مقدمة كتاب رحلة البغدادي، أحمد سبانو ص5 -6.

(2) المصدر السابق.

(3) الرحلات، د/شوقي ضيف ص 60.

(4) مقدمة كتاب رحلة البغدادي، أحمد سبانو ص5 -6.

(5) الرحلات، د/شوقي ضيف ص60.

آثارها ونتائجها)[1] والتي ضربت مصر أواخر القرن السادس الهجري، والرحالة البغدادي (كان ناقداً بصيراً، وعالماً فيلسوفاً، فلم يصف ما شاهده فقط بل درسه ومحّصَه)[2].

. نصوص مُختارة من رحلته .

(وصف مصر)

«إن أرض مصر من البلاد العجيبة الآثار الغريبة الأخبار، وهي وادٍ يكتنفه جبلان شرقي وغربي والشرقي أعظمها، يبتدئان من أسوان ويتقاربان باسنا حتى يكادا يتماسان، ثم ينفرجان قليلاً قليلاً وكلما امتدا طولا انفرجا عرضاً، حتى إذا آزيا الفسطاط كان بينهما مسافة يوم فما دونه ثم يتباعدا أكثر من ذلك، والنيل ينساب بينهما ويتشعب بأسافل الأرض وجميع شُعبه تصب في البحر المالح، وهذا النيل له خاصتان الأولى بعد مرماه فإنا لا نعلم في المعمورة نهراً أبعد مسافة منه، لأن مبادئه عيون من جبل القمر، والخاصة الثانية أنه يزيد عند نضوب سائر الأنهار ونشيش المياه»[3].

(آثار مصر)



«أما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فشيء لم أر ولم أسمع بمثله في غيرها، فمن ذلك الأهرام وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها وهي كثيرة العدد جداً وكُلها في الجيزة وعلى سَمت مصر

(1) مقدمة رحلة البغدادي (الإفادة والأعتبار)، احمد غسان سبانو ص8.

(2) الرحلات، د/شوقي ضيف ص60 -61.

(3) رحلة البغدادي، الإفادة والإعتبار ص 15 -16 بتصرف.

القديمة وتمتد في نحو مسافة يومين وفي بوصير منها شيء كثير وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجارة وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس وقد كان منها بالجيزة عدد كثير لكنها صغار فهدمت في زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب على يدي قراقوش»[1].

(ابنية المصريين)

«وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية حتى أنهم قلّما يتركون غفلاً خالياً عن مصلحة ودورهم فيح وغالب سُكناهم في الأعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة»[2].



(1) المصدر السابق ص 44.

(2) المصدر السابق ص 68.

يـاقـوت الحموي





(575 - 626 هـ)

شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي[1] ..رحالة، جُغرافي، أديب. (ولد في بلاد الروم، أي اليونان، عام 575هـ ولكن لا يُعرف أي شيء عن أُسرته أو بلده أو أصوله، سوى أنه أُسر صغيراً وحُمل إلى بغداد فابتاعه فيها تاجر حموي مُقيم في بغداد اسمه عسكر، وسُمي بياقوت، وهو من الأسماء الشائعة التي تُطلق على الرقيق، ونظراً لأن أباه الرومي كان غير معروف فقد جعلوه عبداً من عبيدالله، وصار اسمه بالتالي ياقوت بن عبدالله الرومي، وألحقوا به «الحموي» نِسبةً إلى مولاه، لا لأنه ولد بحماه)[2] و(نال ياقوت تعليماً جيداً، وعني سيده بتثقيفه لينتفع به ككاتب لأعماله التجارية. واصطحبه في أسفاره التجارية تارة، وأرسله بمفرده أطواراً أخرى)[3] وكانت وفاته سنة 626هـ.

. وصف رحلته .

كان للرحلات التجارية التي قطعها (ياقوت) مع سيده (عسكر) في صغره، عظيم الأثر في توجهه لعلوم الجغرافيا وأدب الرحلات وقد (كان غُلاماً حين كان يتردد إلى جزيرة كيش في المحيط الهندي وإلى عمان في الجزيرة العربية ثم كان يعود إلى الشام إبان تألقها ببني أيوب)[4].

---

(1) دمشق الشام في نُصوص الرحالين والجغرافيين، أحمد الإيبش ود/قتيبة الشهابي الجزء الأول ص 359.

(2) أعلام الجغرافيين العرب، د/عبدالرحمن حميده ص 363.

(3) المصدر السابق ص359.

(4) المصدر السابق ص359.

..(وكان لهذه الأسفار أبعد الأثر في نفس الفتى ياقوت، مما طبع في نفسه حُب الترحال وأدى إلى توسيع أفقه الجغرافي)[1].

ولما (كانت سنة 596هـ، وكان ياقوت في الحادية والعشرين من عمره)[2] جرى بينه وبين مولاه خلاف (فأعتقه وأبعده، ثم عاد بينهما حبل الود حتى وفاة عسكر عام 606هـ. ومنذ ذياك الحين استقر ياقوت ببغداد واحترف بها مهنة استنساخ الكتب وتجارتها، وقادته هذه المهنة إلى الإطلاع على موارد الثقافة الإسلامية ومعرفة العلماء والأعيان، غير أنه ما لبث أن عاد بدءاً من عام 609هـ إلى حياة الأسفار والرحلات دون أن يتخلى عن مهنته الجديدة. فجال في إيران وبلاد العرب وآسيا الصغرى ومصر والشام وبلاد ما وراء النهر. وبدأ ياقوت تجواله ماراً بتبريز والموصل في طريقه إلى الشام ومصر، ثم بعد عدة سنوات عاد إلى دمشق في عام 613هـ ثم غادرها إلى حلب فإربل ثم أرمية فتبريز ومنها إلى إيران الشرقية وأمضى عامين بنيسابور حيث علق قلبه حب فتاة من أهلها، ثم غادرها إلى هرات وسرخس وخراسان وخوارزم إلى أن بلغ مرو، فأمضى بها عامين متنقلاً بين مكتباتها الشهيرة، ولم يلبث أن قرر الاستقرار بها نهائياً، وخاصة أن فكرة وضع معجمه الشهير قد غلبت على تفكيره هناك عام 615هـ)[3] ولم يُدون ياقوت أخبار رحلاته في كتاب مستقل، بل بثها في كتابه الموسوعي مُعجم البلدان كما يذكر ذلك الدارسون المختصون[4]. (وقد تنقل في كثير من البلاد وجمع مشاهداته ومن الكتب السابقة له مادة وفيرة، جعلت كتابه أغنى كتب البلدان معارف وأخباراً، وكان ناقداً مُتثبتاً، فلم يفتح في كتابه باب الخُرافة والأساطير على

---

(1) المصدر السابق ص 359 -360.

(2) المصدر السابق ص 360.

(3) المصدر السابق ص 360.

(4) المصدر السابق ص 361.

مصراعيه كما صنع القزويني)[1].

وإلى جانب كتابه الموسوعي (مُعجم البلدان) (ترك لنا ياقوت كتاباً آخر لا يقل كثيراً بالشهرة الأهمية عن مُعجمه،وهو «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» الذي يعرف أيضاً باسم «معجم الأدباء» ومن مؤلفاته أيضاً: «المشترك وضعاً والمفترق صقعاً» و«المقتضب من كتاب جمهرة النسب» و«المبدأ والمآل» في التاريخ وكتاب «الدول» و«أخبار المتنبي» و«معجم الشعراء»)[2].

. نص مختار من رحلاته .

(عَسقَلان)

« عَسقَلان بفتح أوله وسكون ثانيه ثم قاف وآخره نون، وعسقلان في الإقليم الثالث من جهة المغرب خمس وخمسون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وهو اسم أعجمي فيما علمت وقد ذكر بعضهم أن العسقلان أعلا الرأس فإن كانت عربية فمعناه أنها في أعلا الشام .وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويُقال لها عروس الشام وكذلك يُقال لدمشق أيضاً .وقد نزلها جماعة من الصحابة



المجدل ـ عسقلان

---

(1) الرحلات، د/شوقي ضيف ص 26.

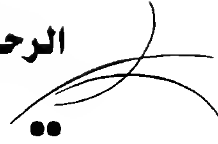
(2) دمشق الشام، أحمد الإيبش ود/قتيبة الشهابي الجزء الأول بتصرف يسير ص 663 -664.

والتابعين وحدث بها خلق كثير ولم تزل عامرة حتى استولى عليها الإفرنج خذلهم الله في سابع عشر جمادي الآخرة سنة 548 وبقيت في أيديهم خمساً وثلاثين سنة إلى أن استنقذها صلاح الدين يوسف بن أيوب منهم في سنة 583 ثم قوي الإفرنج وفتحوا عكا وساروا نحو عسقلان فخشي أن يتم عليها ما تم على عكا فخربها في شعبان سنة 587»[1].



(1) معجم البلدان، ياقوت الحموي ج 6 ص174 -175.

الرحالة المراكشي



(القرن السادس الهجري)

المراكشي ...رحالة مجهول لم يقف الباحثون - بعد - على ترجمة تفصيلية لحياته، أو معلوماتٍ تكشف الغامض من حياة هذا الرحالة، وكل الذي يُعرف عنه أنه عاش في القرن السادس الهجري، وزار مكة والمدينة ومصر و السودان وبلاد المغرب ..وبالنسبة لأصله فيرجح الدكتور سعد زغلول عبدالحميد أن أصله قد يكون مغربياً وذلك حين يقول: (هذا وتدل التفصيلات التي يمدنا بها عن مكناسة وفاس ومراكش على معلوماته الغزيرة عن هذه المدن، فلا شك أنه عاش فيها إن لم يكن أصله منها)[1].

- وصف رحلته -

ترك هذا الرحالة المراكشي - المجهول - كتاباً في الرحلة بعنوان: (الاستبصار في عجائب الأمصار) ومن خلال (النظرة السريعة إلى كتاب الاستبصار تبين أن موضعه بين كتب المكتبة الجغرافية العربية)[2]، إلا أنه يُمكن اعتبار هذا الكتاب من كُتب الرحلات، ذلك لأن الرحالة المراكشي سجل إلى جانب - معلوماته عن هذه البلدان التي زارها - مشاهداته فيها بكل دقة[3].

يقول الدكتور شوقي ضيف عن أدب الرحلات عند العرب: (وقد يكون غريباً أن تكون للجغرافية رحلات بعينها، ولكن هذا ما حدث فعلاً، فإن القوم لم يعمدوا إلى الكتابة في الجغرافيا بطريقة النقل والرواية عن الآخرين أو السابقين، بل كانوا يطوفون بأنفسهم في العالم الإسلامي وغيره، ويُقيدون

---

(1) مقدمة كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار للدكتور سعد زغلول عبدالحميد ص(ت).

(2) المصدر السابق ص (ث) بتصرف.

(3) المصدر السابق ص (د).

مشاهداتهم وما يقع تحت أبصارهم. فأصبحت كتاباتهم الجغرافية في كثير من صورها رحلات بالمعنى الدقيق، تصور أحوال الناس والعُمران بالعين الباصرة اللاقطة)[1].

. نصوص من رحلته.

(الإسكندرية)

«والإسكندرية تُعجب كل من رآها لبهجتها وحُسن منظرها، وارتفاع مبانيها وإتقانها وسعة شوارعها وطُرقاتها. وهي برية بحرية، وفيها من النعم والأرزاق والفواكه ما ليس ببلد مع طيب هوائها وتُربتها»[2].



جانب من مدينة الإسكندرية

(مدينة سُرّت)

«فمن مدينة الإسكندرية على الساحل عمائر كثيرة للعرب ولقبائل من البربر سكنوا في تلك الأحياء إلى مدينة سُرت ومدينة سُرت مدينة كبيرة قديمة على ساحل البحر، وأهلها أخس الناس خُلقاً وأسوأهم معاملة، لا يبيعون ولا يبتاعون إلا بسعر قد اتفقوا عليه. وربما نزل المركب بساحلهم موسوقاً بالزيت، وهم أحوج الناس إليه، فيعمدون إلى الزقاق الفارغة فينفخونها ويصففونها في حوانيتهم، ليرى أهل المركب أن الزيت عندهم

---

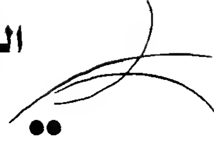
(1) الرحلات للدكتور شوقي ضيف ص5. تعليق/ سبق وأن أوردت هذا الكلام للدكتور شوقي ضيف في وصف رحلة المقدسي.

(2) الاستبصار في عجائب الأمصار ص 10.

كثير بائر، فلو أقام أهل المركب ما شاء الله أن يقيموا، ما باعوا منهم إلا على حكمهم، وهم يُعرفون بعبيد قرلة ويغضبون لذلك»[1].



(1) المصدر السابق ص 109.



القـزوينـي



(القرن السابع الهجري)

زكريا بن محمد بن محمود القزويني[1] ..جغرافي، رحالة (ولد سنة 600هجرية / 1203ميلادية، في بلدة قزوين الواقعة في شمال إيران، ومن ذلك جاء لقبه القزويني الذي اشتهر به. وهو ينحدر من أسرة عربية أصيلة استوطنت العراق العجمي[2] منذ عهد طويل)[3]. (وعندما بلغ الخامسة والعشرين قصد بلاد الشام ودرس الصوفية في دمشق حوالي عام 630هـ /1223م، وتأثر كثيراً بالصوفي الشهير محي الدين بن عربي، كما ربطته صداقة بالكاتب والأديب الكبير ضياء الدين بن الأثير، شقيق المؤرخ المشهور وكان آنذاك مقيماً بالموصل)[4]. وتولى (منصب القضاء في مدينتي واسط والحلة في العراق وذلك في عهد الخليفة المستعصم أخر الخلفاء العباسيين، وظل في منصبه حتى سقطت بغداد في يد المغول بقيادة هولاكو سنة 656هـ ولكن هذا الحدث الجلل لم يمنعه من متابعة دراساته العلمية وقد توفي بعد ذلك بمدة طويلة بعد أن بلغ الثمانين، وذلك في عام 682هـ / 1283م)[5].

. وصف رحلته.

للقزويني(كتابان أحدهما«آثار البلاد وأخبار العباد» في الجغرافيا والثاني «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» في الفلك والتاريخ الطبيعي. وكتابه الجغرافي من أطرف الكتب الجغرافية عند العرب، وهو فيه لا يهتم

---

(1) أعلام الجغرافيين العرب، د/عبدالرحمن حميده ص 405.

(2) العراق العجمي هي إيران، وكانت إيران والعراق تسميان بـ (العراقين).

(3) المصدرالسابق ص 405 بتصرف يسير.

(4) المصدرالسابق ص 405 بتصرف يسير.

(5) المصدرالسابق ص 405 بتصرف يسير.

بالمسالك، إنما يهتم بأحوال البلاد والسُكان، مُضيفاً كل ما يستطيع من طُرفة نادرة وعجيبة خارقة. وقد قسم الكتاب إلى سبعة أقاليم، تكلم في كل إقليم عن بلاده مرتباً لها على حروف المعجم، وهو لا يقف كما وقف المقدسي عند المملكة الإسلامية، بل يضم كما ضم الإدريسي ذكر البلدان الأوربية، ويجمع من هُنا وهُناك غرائب كثيرة عن العالم في أوربة وإفريقية وآسيا وبلادها البعيدة مثل الهند والصين .وفي حديثه عن العجائب بعض المبالغات، مما يجعل طائفة منها أقرب إلى الخُرافة، ولكنها مع ذلك لها طرافتها، إذ أراد بها القص، ونحن لا نقرأ فيها حتى نذكر كتاب ألف ليلة وليلة وما به من عجائب عن عالمي الجن والإنس. وكأن الجغرافيين أرادوا إرضاء حاسة الخيال عند قُرائهم، وكلما كان الإقليم أبعد تمادوا في المبالغة .وبجانب هذه الأقاصيص نجده يقص عن البلاد الإسلامية كثيراً من الحكايات عن الزُهاد والصالحين، كما يتعرض لكثير من أخبار التاريخ والملوك السابقين، ويجمع كتابه خوارق النُساك والمتصوفة بجانب خوارق البنيان والآثار، ومن حينٍ إلى حين نلتقي -في كتابه- بغرائب الأخبار لا في الإنسان، بل أيضاً في الطير والحيوان البري والبحري والزواحف .ودائماً نلتقي عند القزويني بتخاريف طريفه)[1].

وعن الرحالة القزويني يقول الدكتور حسين محمد فهيم: (لقد تنقل رحالة الفترة الأولى في حدود أقاليم العالم الإسلامي بصفة خاصة، سواء كان ذلك لأهداف دينية أو تعليمية أو إدارية. وأيّاً كان الغرض من الرحلة، فقد جذب الرحالة جميعهم أمر النظر والتحقيق في «آثار البلاد وأخبار العباد» كما جاء في عنوان زكريا القزويني لكتابه الذي صدر في القرن السابع الهجري)[2] ومع أن القزويني جغرافي إلاّ أن أغلب الجغرافيين العرب القُدماء هم في الأصل رحالة وانظر وصف رحلة محمد بن أحمد المقدسي.

---

(1) المصدر السابق ص 21وص 23 -26 بتصرف وزيادة يسيرة.

(2) ادب الرحلات، ص106.

. نصوص مُختارة من رحلته .

(جزيرة النساء في الصين)

«لأهل الصين يد باسطة في الصناعات الدقيقة، ولا يستحسنون شيئاً من صناعات غيرهم، وأي شيء رأوا أخذوا عليه عيباً، ويقولون: أهل الدُنيا ما عدانا عُمي إلاّ أهل كابل فإنهم عور، وبالغوا في تدقيق صَنعة النقوش، حتى إنهم يُصورون الإنسان الضاحك والباكي، ويفصلون بين ضحك السرور والخجالة والشماتة، وإذا أراد ملكهم شيئاً من المتاع يعرضه على أرباب الخبرة، ولا يتركه في خزائنه إلا إذا وافقوا على جودته. وحُكي أن صانعاً اتخذ ثوباً ديباجاً عليه صورة سنابل وقعت عليها العصافير، فعرضه الملك على أرباب الخبرة واستحسنوه، إلا صانعاً واحداً، قال: العصافير إذا وقعت على السنابل أمالتها، وهذا المصور عملها قائمة لا ميل فيها، فصدقه الحاضرون وعجبوا من دقة نظره في الصنعة[1]. ومن خواص بلاد الصين أنه قلما يُرى بها ذو عاهة كالأعمى والزَّمن (ذي العاهة) ونحوهما وأن الهرة لا تلد بها. وقال محمد بن أبي عبدالله: رأيت بالصين إنساناً يصيح صياح القردة، وله وبر كوبر القرد ويداه تنالان ساقيه إذا بسطهما قائماً ويكون على الأشجار، يثب من شجرةٍ إلى شجرة، وبينهما عشرة أذرع. وبالصين دابة المسك، وهي دابة تخرج من الماء في كل سنة في وقتٍ معلوم، ويُصطاد منها شيء كثير، وهو شديد الشبه بالظباء، فيُذبح ويؤخذ الدم من سُرته، وهو المسك، ولا رائحة له هناك حتى يُحمل إلى غيرها من الأماكن .وفي بحر الصين جزيرة فيها نساء لا رجال معهن أصلاً، وإنهن يلقحن من الريح ويَلدن النساء مثلهن، وقيل إنهن يلقحن من ثمرة شجرة عندهن يأكلن منها، فيلقحن ويلدن نساء. حكى بعض التجار أن الريح ألقته إلى هذه الجزيرة، قال: فرأيت نساء لا رجال معهن،

---

(1) أظن أن مؤرخيّ الفنون التشكيلية لن يمروا على هذه القصة مرور الكرام خاصة وهي تكشف جانباً من البدايات الأولى للنقد التشكيلي في العالم القديم.

ورأيت الذهب في هذه الجزيرة مثل التُراب، ورأيت من الذهب قضباناً كالخيزران! فهممن بقتلي، فحمتني امرأة منهن، وحملتني على لوحٍ وسيبنني في البحر، فألقتني الريح إلى بلاد الصين، فأخبرت صاحب الصين بحال الجزيرة وما فيها من الذهب، فبعث من يأتيه بخبرها، فذهبوا ثلاث سنين وما وقعوا بها فرجعوا»[1].

(تنين حلَب)



«ظهر بها - أي مدينة حلب - سنة أربع وعشرين وستمائة تنين بغلظ منارة وطول مُفرط، ينساب على الأرض، يبلع كل حيوان يجده، ويُخرج من فمه ناراً تُحرق ما تلقاه من شجرٍ أو نباتٍ، واجتاز على بيوتٍ أحرقها، والناس يهربون منه يميناً ويساراً، حتى انساب قدر اثنى عشر فرسخاً، فأغاث الله تعالى الخلق منه بسحابة نشأت وتدلت إليه، فاحتملته، وكان قد لَفَّ ذنبه في كلب، فرفع الكلب وهو يعوي في الهواء، والسحاب يمشي به والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين»[2].

(الهيكل المدوّر في الصين)

«الهيكل المدوّر، وله سبعة أبواب، في داخله قُبة عظيمة البنيان عالية السَّمك، وفي أعلى القُبة شبه جوهرة كرأس عجل، يُضيء منها جميع أقطار الهيكل، وإن جمعاً من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فما تمكنوا من ذلك، فمن دنا منها قدر عشرة أذرع خَرَّ ميتاً، وإن حاول أخذها بشيءٍ من

---

(1) آثار البلاد وأخبار العباد، للقزويني ـ نقلاً عن كتاب الرحلات لشوقي ضيف ص 22 -24.

(2) المصدر السابق ص 25.

الآلات الطُوال، فإذا انتهى إليها انعكست، وكذلك إن رمى إليها شيئاً، وإن تعرض أحد لهدم الهيكل مات، وفي هذا الهيكل بئر واسعة الرأس من أكبَّ عليها وقع في قعرها، وعلى رأس البئر شبه طوق، مكتوب عليه: هذه البئر مخزن الكُتب التي هي تاريخ الدُنيا وعلوم السماء والأرض وما كان فيها وما يكون، وفيها خزائن الأرض، لكن لا يصل إليها إلا من وازن علمه علمنا، والأرض التي عليها هذا الهيكل أرض حجرية عالية كجبلٍ شامخ لا يُرام قلعه ولا يتأتي نقبه. وإذا رأى الناظر إلى ذلك الهيكل والقُبة والبئر وحسن بنيتها مال قلبه إليها وتأسف على فساد شيء منها»[1].

(الطاحونة العجيبة)

«ومن عجائب الصين ... طاحونة يدور حجرها التحتاني، والفوقاني ساكن،ويخرج من تحت الحجر دقيق لا نخالة فيه، كل واحد منهما منفرد عن الآخر»[2].

(الفرس والغدير)

«وبها - أي الصين. قرية عندها غدير فيه ماء، في كل سنة يجتمع أهل القرية ويُلقون فرساً في ذلك الغدير، والناس يقفون على أطرافه كُلما أراد الفرس الخروج من الماء منعوه، وما دام الفرس في الماء يأتيهم المطر، فإذا أمطروا قدر كفايتهم وامتلأ الغدير أخرجوا الفرس وذبحوه على قُلة جبل وتركوه حتى يأكله الطير، فإن لم يفعلوا ذلك في سنةٍ من السنين لم يُمطروا»[3].



(1) المصدر السابق ص 22.

(2) المصدر السابق ص 22.

(3) المصدر السابق ص 22.

ابــن بطــوطــة

(703 - 779 هـ)



ابن بطوطه

محمـد بـن عبـدالله بـن محمـد بـن إبـراهيم اللـواتي الطنجـي، أبـو عبـدالله، الشـهير بـابن بطوطه .. من أكابر وأشهر الرحالة العرب، ومن الرحالـة الأوائـل والقلائـل المعـدودين في العـالم، الـذين اقتحمـوا مجـال (عـالم الـرحلات) وطـافوا العالم شرقاً وغرباً، بحثاً عن الغرائب والعجائب والطرائـف في حيـاة الأمـم والشـعوب، فـأمتعوا النـاس بأخبـارٍ وحكايـات تأسـر القلـوب، وتأخـذ بألبـاب العقـول. وبهمتـه العاليـة وطموحـه النـادر، حقق ابـن بطوطـه الريـادة في (أدب الـرحلات)، وصـار كـل مـن جـاء بعـده مـن الرحالة يتمنـى الوصـول إلى درجتـه العاليه في المجـد والشُـهرة، وحـاول الكـثير منهم أن يقلدوا ابن بطوطه في أسلوبه وخاصـة عنـد روايتـه للغرائـب والعجائـب. وإن كـان في بعضها نظـر كمـا يقـول بعـض المختصـين . إلا أنهـم لم يصـلوا إلى مستوى أسلوبه المستساغ والمُمتع وإن روى حتى أُسطورة أو خرافة من الخُرافات.

..ولـد ابـن بطوطـه في (مدينـة طنجـة في يوم الإثنين السـابع عشـر مـن شـهر رجـب سـنة 703هـجريـة / الرابـع والعشـرين مـن فبرايـر سـنة 1304ميلاديـة)[1] (لأسـرة عنيت بالعلوم الشرعية، وعُرفت بالبسطة في العيش والسعة. واهـتم أبـوه بتربيته، فدرس الفقه والأدب، وأصبح حرياً بأن يكـون قاضياً مثل كـثير مـن أهله، ولـكن داعيُّ الحج إلى البيت الحرام دعاه، فلباه، وخرج من بلده وهو في

(1) ابن بطوطه ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل د/حسين مؤنس ص 16.

الثانية والعشرين من عُمره، سنة 725هـ/1324م)[1].

. وصف رحلته.

وكان خروجه للحج وهو في هذه السن أول خيوط رحلته الكبرى، حيث (انطلق من طنجة إلى افريقية الشمالية فزار مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ثم مصر ففلسطين فسورية فالحجاز حيث يقصد. وبعد أن أتم فريضة الحج ـ للمرة الأولى ـ تابع الرحلة إلى فارس، والعراق، والأناضول، وعاد إلى مكة ثانية مروراً بالموصل وديار بكر. وبعد أن ارتحل إلى اليمن في جنوبي الجزيرة العربية وإلى عُمان والبحرين والأحساء من الخليج الفارسي[2]، وجاوز كل ذلك إلى افريقية الشمالية، وعاد للمرة الثالثة إلى مكة مروراً بالخليج الفارسي[3] من جديد. ومن ثم قصد مصر فلم يلبث أن غادرها متجهاً نحو فلسطين فالأناضول فشبه جزيرة القرم ومن هناك أبحر إلى القسطنطينية برفقة إحدى الملكات. وانطلق إلى الهند عابراً بخارى، وخوارزم، وخراسان، وكردستان، وأفغانستان، وفي دلهي ـ أو دهلي كما يُسميها ـ شغل أحد مناصب القضاء حتى إذا بعث به السلطان مع أحد الوفود، لحمل بعض الهدايا إلى ملك الصين، هبت عاصفة في أحد الثغور الهندية على المركب فأغرقته. فلم يعد ابن بطوطه إلى السلطان بل قضى حوالي سنة ونصف السنة في إحدى الجزر[4] المجاورة، تولى فيها من جديد منصباً في القضاء. وشعر بعد ذلك برغبة في زيارة الصين، لكثرة مغرياتها فقصدها بعد أن مر بسيلان والبنغال وشبه جزيرة الملايو. ومن هناك عبر إلى جزيرة سومطرة ثم اتجه نحو بلاد العجم ففارس فالعراق فسوريا فمكة للمرة الرابعة)[5] بعد ذلك (عاد إلى فارس ماراً

---

(1) الرحلات، د/شوقي ضيف ص 95.

(2) الصواب الخليج العربي كما يقرره المختصون في الجغرافيا وعلوم البحار.

(3) الصواب ما سبق ذكره .

(4) هي: جزر المالديف.

(5) أدب الرحلة، جورج غريب ص 59 -60.

بمصر فتونس الخضراء، فالجزائر، فوصل المغرب بعد الغياب الطويل سنة 750هـ /1349م)[1] ثم (نهض إلى الرحلة الثانية، فكانت إلى اسبانية، حيث تعرف في أثناء ترحاله إلى سبتة وجبل طارق ومالقة وغرناطة)[2] بعدها رجع (إلى فاس، ليهيىء نفسه للرحلة الثالثة، وكانت هذه المرة إلى إفريقية، حيث قضى سنتين زار خلالهما بعض المناطق الإفريقية، وأفل بعدها إلى فاس من جديد حيث أمضى بقية عمره)[3].

..يقول د/شوقي ضيف: (لم يترك ابن بطوطة بلداً نزل بها إلا وتحدث عن أهلها وسلطانها وعلمائها وقُضاتها، وبذلك كانت رحلته معرضاً كبيراً لحياة الأمم والأقاليم التي نزل بها من الوجهتين السياسية والاجتماعية، وكانت فيه نزعة دينية قوية، فأطال الوقوف عند رجال الدين وأمور الإسلام وزوايا المتصوفة)[4] ويقول الدكتور يوسف الشويري: (تقوم رحلة ابن بطوطة على خلق الدهشة في القارئ عبر إيراد الكثير من الطرائف والغرائب)[5].

ورحلة ابن بطوطة كما يقول الدكتور حسين مؤنس: (معروفة متداولة بأيدي الناس، وهي قصة جميلة تُقرأ في لذة واستمتاع، لأنها في صميمها مغامرة طويلة حافلة بالمعلومات الصادقة الدقيقة بالإضافة إلى ما فيها من الغرائب والطرف، وراويها رجل صدوق لا يتكلف شيئاً في أحاديثه، بل كان هو نفسه لا يُفكر في تسجيل رحلته لولا أن الناس ألحوا عليه في ذلك)[6] وكان نتاج رحلة ابن بطوطة كتاب بعنوان: (تُحفة النظار في غرائب الأمصار) وكانت وفاته سنة 779هـ/1377م.

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

(4) الرحلات لشوقي ضيف ص 98.

(5) الرحلة العربية الحديثة من أوروبا إلى الولايات المتحدة، يوسف الشويري ص12.

(6) ابن بطوطة ورحلاته، حسين مؤنس ص 11.

- **نصوص مُختارة من رحلته** -

(الصينيون عباقرة الصناعات)

«وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدهم إتقاناً فيها، وذلك مشهور من حالهم، قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه، وأما التصوير فلا يُجاريهم أحد في إحكامه من الروم ولا من سواهم، فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً. ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أني ما دخلت قط مدينة من مُدنهم ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد، موضوعة في الأسواق. ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي، ونحن على زي العراقيين، فلما عدت من القصر عشياً مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط، فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تُخطيء شيئاً من شبهه. وذُكر لي أن السلطان أمرهم بذلك، وأنهم أتوا إلى قصره ونحن به، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا، ونحن لم نشعر بذلك. وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم، وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته إلى البلاد وبُحث عنه، فحيثما وُجد شبه تلك الصورة أُخذ»[1].

(مسجد ومرقص!!)

«وبمدينة دولة آباد سوق للمغنين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد، من أجمل الأسواق وأكبرها فيها الدكاكين الكثيرة كل دكان له باب يُفضي إلى دار صاحبه. وللدار بابٌ سوى ذلك، والحانوت مزين بالفرش، وفي وسطه

(1) تُحفة النظار في غرائب الأمصار، ابن بطوطة ص 366. تعليق / في هذه القصة ما يدل على أن الصين القديمة امتلكت نظاماً أمنياً راقياً يشبه إلى حدٍ كبير الاحتياطات الأمنية التي تفرضها الدول في عصرنا الحاضر على مواطنيها وعلى الغرباء الوافدين إليها، من بطاقات الهوية وجوازات السفر وغيرها..

شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد، وهي متزينة بأنواع الحلي، وجواريها يحركن مهدها. وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس، وبين يديه خدامه ومماليكه، وتأتي المغنيات طائفة بعد أُخرى، فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب، ثم ينصرفن. وفي تلك السوق المساجد للصلاة، ويصلي الأئمة فيها التراويح في شهر رمضان، وكان بعض سلاطين الكفار بالهند، إذا مرَّ بهذه السوق، ينزل بقبتها وتغني المغنيات بين يديه، وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضاً»[1].

(ذكر اهل الهند الذين يُحرقون انفسهم بالنار)[2]

«ولمّا انصرفت عن هذا الشيخ[3]رأيت الناس يهرعون من عسكرنا، ومعهم بعض أصحابنا، فسألتهم: ما الخبر؟ فأخبروني أن كافراً من الهنود مات، وأججت النار لحرقه، وامرأته تحرق نفسها معه، ولما احترقا جاء أصحابي واخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه، وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة، راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر، والأطبال والأبواق بين يديها، ومعها البراهمة، وهم كبراء الهنود، وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان في إحراقها فيؤذن لهم، فيحرقونها. ثم اتفق بعد مدة أني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تُعرف بابحري، وأميرها مسلم من سامرة السند، وعلى مقربة منها الكفار العصاة، فقطعوا الطريق يوماً، وخرج الأمير المسلم لقتالهم، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار، وقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر. وكان لثلاثة منهم ثلاثُ زوجات، فاتفقن على إحراق أنفسهن، وإحراق

(1) المصدر السابق ص 319.

(2) العنوان لابن بطوطة.

(3) هو فريد الدين البذاوني لقيه ابن بطوطة في الهند.

المرأة بعد زوجها عندهم أمرُ مندوب إليه، غير واجب، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك، ونُسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها، ولكنها لا تُكره على إحراق نفسها، ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على إحراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا، ويأتي إليهن النساء من كل جهة، وفي صبيحة اليوم الرابع أُتيت كل واحدة منهن بفرس، فركبته وهي متزينة متعطرة وفي يُمناها جوزة نارجيل تلعب بها، وفي يُسراها مرآة تنظر فيها وجهها، والبراهمة يحفون بها، وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار، وكل إنسان من الكفار يقول لها: ابلغي السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي، وهي تقول: نعم وتضحك لهم. وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار، متكاثف الظلال، وبين أشجاره أربع قباب في كل قبة صنم من الحجارة، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال، وتزاحمت الأشجار، فلا تُخللها الشمس، فكان ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم، أعاذنا الله منها. ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصهريج، وانغمسنا فيه، وجردن ما عليهن من ثياب وحُلي، فتصدقن به، وأُتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط، فربط بعضه على وسطها، وبعضه على رأسها وكتفيها، والنيران قد أُضرمت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض، وصُب عليها روغن كنجت كنجد وهو زيت الجلجلان فزاد في اشتعالها، وهنالك نحو خمسة عشر رجلاً بأيديهم حزم من الحطب الرقيق، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار. وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة، وقد حجبت النار بملحفة يُمسكها الرجال بأيديهم لئلا يُدهشها النظر إليها، فرأيتُ إحداهن لمّا وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف، وقالت لهم: مارا ميترساني ازاطش (آنش) من ميدانم أو اطش است راها كني

مارا، وهي تضحك، ومعنى هذا الكلام: أبالنار تُخوفونني؟ أنا أعلم أنها نار محرقة. ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار، ورمت بنفسها فيها. وعند ذلك ضربت الأطبال والأنفار والأبواق ورمى الرجالُ ما بأيديهم من الحطب عليها، وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك، وارتفعت الأصوات، وكثر الضجيج، ولما رأيتُ ذلك كدت أسقط عن فرسي لولا أصحابي الذين تداركوني بالماء فغسلوا وجهي وانصرفت»[1].



(1) رحلة ابن بطوطة، تحفة النُظار في غرائب الأمصار ص 238 -240.

ابن خلدون

(732 - 808هـ)

عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون، أبو زيد ..علامة، مؤرخ، أديب، رحالة، شاعر، مُفكر، فيلسوف، .. واضع ومؤسس علم الاجتماع والعُمران، ولأجل هذا العلم طارت شُهرته كل مطار وعرفه الشرق والغرب كعظيمٍ من عُظماء الإنسانية. ولد سنة 732هـ/1332م و(يرجع نسبه إلى وائل بن حُجر من عرب اليمن. وقد نزح جده الأعلى خلدون إلى الأندلس في القرن الثالث للهجرة، ونزل إشبيلية، ثم انتقلت أُسرته من إشبيلية إلى تونس في أواسط القرن السابع، عند غلبة الجلالقة عليها. وفي تونس



ولد ابن خلدون وتعلم، ثم صار يتنقل في بلاد المغرب والأندلس، وملوكها يتنافسون في إكرامه والاختصاص به، وقد كتب لبعضهم و وَزَر لبعض، وأخيراً استقر به المقام مع أولاده في تِلمسان وشرع في تأليف تاريخه، ثم عاد إلى تونس، ومنها انتقل إلى مصر، فدخلها سنة 487 واتصل بملكها السلطان برقوق، فولاه قضاء المالكية سنة 876 وقد أرسل يستدعي أُسرته من تونس، فغرقوا جميعاً في البحر، فعظم عليه الأمر، واستقال من منصبه، وانقطع للتدريس والتأليف. وأتم كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر»)[1] وبعد حياة حافلة بالعلم والعمل والجد والتجديد أدركته الوفاة بالقاهرة سنة 808هـ/1406م ودُفن بباب النصر[2]، وترك مجموعة من نفائس الكُتب

(1) إعجام الأعلام، محمود مصطفى ص 16.

(2) المصدر السابق ص 17.

أشهرها كتابه (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) وحازت مقدمة هذا الكتاب التي عُرفت فيما بعد بمقدمة ابن خلدون على قصب السبق بين سائر كتبه الأُخرى واشتُهر بها بين العلماء الذين تخاطفوها لتدريسها لطلابهم وتحليلها ونقدها وإخراج ما فيها من سرائر الحكمة والفلسفة.

. وصف رحلته .

(رحل ابن خلدون إلى الأندلس مرتين، ثم ارتحل إلى مصر والحجاز والشام)[1] ودخل مراكش وفيها أصبح أميناً للسر عند سُلطانها أبي عنان المريني، وفي غرناطة بالأندلس عاش مُدة في بلاط ملكها ابن الأحمر. ورافق الحملة المصرية لمحاربة تيمورلنك في الشام وكان مفاوضاً بارعاً، وفي تونس تولى وظيفة كاتب عند أميرها. وتولى رئاسة الوزراء في بجانه (من بلاد الجزائر) وسافر إلى مكة لأداء مناسك الحج[2]. ورحلات ابن خلدون موجودة في كتابٍ من تأليفه جاء تحت عنوان: (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً)، وكتابه هذا أشبه بالترجمة والسيرة الذاتيَّة.

. نص مختار من رحلته .

(الرحلة إلى تونس)

«ولما نزلت بقلعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عَريف، وسكنت منها بقصر أبي بكر بن عَريف الذي اختطّه بها، وكان من أحفل



تونس في العصر الحديث

(1) مقدمة كتاب (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً)، لمحمد بن تاويت الطبخي ص (يز).

(2) مقدمة كتاب (مقدمة العلامة ابن خلدون) طبعة دار الفكر اللبنانية 2004ص 5.

المساكن وأوثقها، ثم طال مُقامي هنالك، وأنا مستوحش من دولة المغرب وتلمسان، وعاكف على تأليف هذا الكتاب[1]، وقد فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزَنَاتة، وتشوّفت إلى مُطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلاّ بالأمصار، بعد أن أمليت الكثير من حفظي، وأردت التنقيح والتصحيح، ثم طرقني مرض أوفى بي على الثنية، لولا ما تدارك من لُطف الله، فحدث عندي ميل إلى مراجعة السلطان أبي العباس، والرحلة إلى تُونس، حيث قرار آبائي، ومساكنهم، وآثارهم، وقبورهم، فبادرت إلى خطاب السلطان بالفيئة إلى طاعته، والمراجعة، وانتظرت، فما كان غير بعيد، وإذا بخطابه وعُهوده بالأمان، والاستحثاث للقُدوم، فكان الخفوف للرحلة، فظعنت عن أولاد عريف مع عرب الأخضر من بادية رياح، كانوا هنالك ينتجعون الميرة بمنداس، وارتحلنا في رجب سنة ثمانين، وسلكنا القفر إلى الدوسن من أطراف الزاب، ثم صعدت إلى التل مع حاشية يعقوب بن علي وجدتهم بفرنار، الضيعة التي اختطها بالزاب، فَرحَلتهم معي إلى أن نزلنا عليه بضاحية قُسنطينة، ومعه صاحبها الأمير إبراهيم بن السلطان أبي العباس بمخيمه، وفي عسكره، فحضرت عنده، وقسم لي من بره، وكرامته فوق الرضى، وأذن لي في الدخول إلى قسنطينة، وإقامة أهلي في كفالة إحسانه، بينما أصل إلى حضرة أبيه، وبعث يعقوب بن علي معي ابن أخيه أبي دينار في جماعة من قومهم، وسرنا إلى السلطان أبي العباس، وهو يومئذ قد خرج من تونس في العساكر إلى بلاد الجريد، لاستنزال شيوخها عن كراسي الفتنة التي كانوا عليها، فوافيته بظاهر سُوسة، فحيا وفادتي، وبر مقدمي، وبالغ في تأنيسي، وشاورني في مهمات أموره، ثم ردني إلى تونس، وأوعز إلى نائبه بها مولاه فارح بتهيئة المنزل، والكفاية في الجراية، والعُلوفة، وجزيل

---

(1) يعني بذلك كتابه (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر).

الإحسـان، فرجعت إلى تـونس في شعبان مـن السـنة، وآويـت إلى ظل ظليـلٍ مـن عناية السلطان وحُرمتـه، وبعثت عـن الأهـل والولـد، وجمعت شملهم في مرعـى تلك النعمة، وألقيتُ عصا التسيار .. ولما قدمت تونس انثال علي طلبة العلم، يطلبون الإفادة والاشتغال، وأسعفتهم بذلك»[1].



(1) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، عبدالرحمن بن خلدون، ص 231وص233 بتصرف يسير.

ابن معصوم المدني



(1052 - 1120 هـ)

علي صدر الدين ابن الأمير أحمد نظام الدين بن محمد معصوم المدني الشهير بـ(ابن معصوم المدني)، علامة، أديب، شاعر، رحالة ..ولد في المدينة النبوية (ليلة السبت الخامس عشر من جمادي الأولى سنة 1052هـ)[1] ..نشأ في حِجر أبيه الأمير أحمد نظام الدين، وتلقى معارفه وعلومه على أيدي ثُلة من العلماء الكرام في عصره ..(وأُمه كريمة العلامة الشيخ أحمد المنوفي إمام الشافعية في الحجاز)[2].

. التعريف برحلته.

لم تكن الرحلة فناً مُحبباً عند ابن معصوم المدني، ولم يكن على باله أن يكون ذات يومٍ رحالة، وإنما دُفع لذلك دفعاً، حين غادر الحجاز وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من عُمره سنة 1066هـ إلى الهند (بطلب من والده الذي كان يشغل وظيفة نائب السلطنة في حيدر آباد أيام السلطان قُطب شاه)[3]. وقد رافقته أثناء سفره من الحجاز إلى الهند . بعثة شرف . برئاسة وزير من حيدر آباد الدكن[4]، واستغرقت رحلته إلى أن وصل إلى أبيه تسعة عشر شهراً[5] فمر أثناء رحلته هذه على مجموعة من البلدان، واختزن في ذاكرته كل ما شاهده في رحلته من الحجاز إلى الهند، ولما بلغ في العلم مبلغاً مُتقدماً،

---

(1) مقدمة رحلة ابن معصوم المدني للمحقق شاكر هادي شكر ص 5.

(2) المصدر السابق ص5.

(3) المصدر السابق ص5.

(4) مقدمة المحقق ص 8.

(5) المصدر السابق ص8.

فشرع في كتابة رحلته سنة 1074هـ ودَون فيها كل مشاهداته وهو في الثانية والعشرين من عُمره ليكون بذلك من أصغر الرحالة العرب. وقد أشار ابن معصوم المدني إلى صغر سنه في مقدمة رحلته فقال: (ولقد منيت بكرية الغربة، وتشعث الحال وعهد الصبا مخيم ما هَم بالارتحال، وبُليت بورود منهل البين الأكدر، وباهر العُمر مُشرق أشرف على الكمال وما أدبر، رمتني مرامي النوى بجهدها، وأبدلتني عن خير بلاد الله المشرفة بأرض هندها، وناهيك بأرض شاسعة نائية، وبلد أهلها كفرة طاغية) إلى أن يقول : (وكان السبب في تجرع مرارات النوى، وتحمل حرارات الجوى، وفراق الأهل والوطن، والبُعد عن السوح المحترم والحرم المؤتمن، أن قضى الله على الوالد بفراقه لتلك المواطن واغترابه عن هاتيك المنازل والمعاطن، مدعواً إلى الدكن من الديار الهندية) .وبعد وصول ابن معصوم المدني إلى الهند ومكوثه عند والده، تُوفي السلطان عبدالله قُطب شاه، فتولى السُلطة أحد وزراء الملك الراحل، وفرض على ابن معصوم وأبيه الإقامة الجبرية.. وفي سنة 1086هـ تُوفي والد ابن معصوم وهو تحت الإقامة الجبرية (الحجر)، وشعر ابن معصوم أن هناك مؤامرة تُحاك لقتله، ففر إلى (برهان بور) والحق بالسلطان محمد أورنك زيب شاه، وتولى رئاسة الديوان في البلاط الملكي ..وبعد فترة من الزمن ضعف السلطان محمد شاه وتقدمت به السن وسآءت أخلاقه، التي لم يُطق ابن معصومٍ تحملها، ففكر في العودة للحجاز، وتمكن من الحصول على الإذن بالسفر بحجة أداء فريضة الحج .. فسافر مع عائلته سنة 1114هـ، ووصل مكة المكرمة، وأدّى فريضة الحج، واتجه بعد ذلك للمذينة النبوية وزار قبر الرسول الأعظم محمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ينوي الإقامة في أي من المدينتين (مكة والمدينة) (فوجد كل شيء فيهما قد تغير ولا يكاد يعرف

أحداً من الناس بعد غياب دام 48سنة)[1] فسافر للعراق وزار البصرة والنجف وكربلاء وبغداد، ووجد كذلك أن العيش في العراق لا يُناسبه خاصةً وأنه لم يجد فيها (الجوّ الملائم للتأليف والتدريس الذين نذر لهما ما بقي من أيام حياته، فقرر مواصلة السفر إلى إيران)[2]. وفي إيران زار مُدن خراسان وقُم وأصفهان، وكان ينوي الإقامة في الأخيرة إلا أنه (وجد الأمور مضطربة على السلطان حسين الصفوي فواصل سفره إلى شيراز وهي آنذاك عامرة بالعلم والعلماء، فألقى بها عصا الترحال،واتخذ المنصورية مقراً لعمله في التدريس والتأليف.. وتوفي بشيراز سنة 1120هـ على أصح الأقوال، ولم يرم القلم إلا قُبيل وفاته ببضع ساعات، ودُفن بحرم أحمد بن الإمام موسى بن جعفر الملقب بشاه جراغ)[3] وترك آثاراً علمية قيمة المعروف منها كما ذكر الأستاذ شاكر هادي شُكر عشرون مؤلفاً منها:

رحلته المسماه (سلوة الغريب وأسوة الأريب)،وسلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، وديوان شعره ..وفي رحلته سلوة الغريب وأسوة الأريب (وصف المدن والقرى [التي مَر بها] والسكان والمناخ والماء والهواء والجبال والأشجار والثمار، والحيوان، والمساجد ومراقد العُلماء،وترجم لبعضهم، ووصف البحار وما فيها من حيوان وأحجارٍ كريمة وغرائب،فنمق كل ذلك ووشاه بما عُرف عنه من القدرة على الاستطرادات الأدبية الرائعة، والاستدراكات العلمية المُفيدة وأورود الكثير من الشواهد المُختارة نظماً ونثراً)[4].وكان قد بدأ في تدوين رحلته سنة 1074هـ وهو في الثانية والعشرين

(1) المصدر السابق ص6.

(2) المصدر السابق ص 6.

(3) المصدر السابق ص6بتصرف يسير.

(4) المصدر السابق ص8.

من عُمره ـ كما أسلفنا ـ وانتهى من كتابتها في الثالثة والعشرين من عمره سنة 1075هـ.

ـ نصوص مختارة من رحلته ـ

وكان أول مبتدأ رحلة ابن معصوم المدني ـ بعد خروجه من الحجاز ـ من اليمن ولذلك سنرى أن أغلب نصوص رحلته التي قطعها من الحجاز إلى الهند كانت عن مناطق وأماكن يمانية، وعن ذلك يقول: (فسلكنا طريق اليمن الميمون، متوجهين نحو ذلك القطر المأمون [أي الهند] وسرينا نقتحم مهامه وقفارا، ولا نملك للدموع كفافاً ولا للقلوب نفارا، نجوب جيوب تلك الليلة الدهماء، ونخبط خبط عشواء في تلك الفلاة اليهماء إلى أن أسفر الصباح، فنزلنا بحمى هنالك مُباح، يُقال له (البيضاء) قد نشرت من محله راية سوداء كأنه لم يُنبت نجمة خضراء فقلنا فيه ذلك اليوم وهيهات أن يجنح طرف إلى نوم ...فارتحلنا منه إلى السعدية وتبوأنا ظلالها وإن كانت غير ندية وهي ميقات اليمن بحذاء (يلملم) وهو ميقاتهم الذي وقته لهم النبي ـ ﷺ ـ)[1]. ثم ذكر ما حدث من حرب وقتال بين بعض الخدم وسائقي القوافل المعروفين آنذاك بـ(المكارين) ولم يفك ما بينهم من قتالٍ سوى حلول الليل. بعد ذلك ارتحل إلى دوقه (وهي وادٍ على طريق الحاج من صنعاء إذا سلكوا تهامة)[2] ومنها إلى وادي الحسبة حتى وصل إلى القنفذة فوصفها قائلاً : (وهي قرية بالقرب من حلي على ساحل البحر ويقال : أنها كانت في القديم فرضة مكة المشرفة بها تُرسي جميع السفن الواردة من الأقطار، ثم اهملت وجعلت الفرضة جدة)[3].

---

(1) رحلة ابن معصوم المدني المسماه : (سلوة الغريب وأسوة الأريب).

(2) مقدمة رحلة ابن معصوم لشاكر هادي.

(3) رحلة ابن معصوم المدني.

(في جزيرة كمران)

وزار ابن معصوم المدني جزيرة كمران فقال: (ثم سرنا ليالي وأياماً نُلاطم تلك الأمواج لطاماً حتى وافينا جزيرة كمران بفتح الأحرف الثلاثة وهي جزيرة مُحيط بها البحر، إلا أن ماءها في غاية العذوبة، وبها مسجد عظيم، وأشجار وفواكه، وإليها يُنسب الملح الكمراني الذي لا يوجد مثله في غيرها، وهو لا يُستعمل إلا دواءً لشدة ملوحته، ينفع لأمراض كثيرة، ولا يُدانيه شيء من أقسام الملح في نقاوته وصلابته، وفيها مدفن الشيخ الكبير الشهير محمد بن عبد ربه المشهور بالورع والزهد، وضريحه بها من المزارات المشهورة)[1].



واحة خضراء في جزيرة كمران

(1) رحلة ابن معصوم المدني ص 62 -63.

(في مدينة الحديدة)

ويواصل الرحالة ابن معصوم سرد رحلته في بعض مناطق اليمن فيقول: (ولم نُقم في هذه الجزيرة - أي جزيرة كمران - إلا نصف نهار حتى عُدنا إلى اقتحام التيار واستلام ذلك الفلك السيار، فسرنا والبحر المديد دائرته مختلفة ،ولم نر مع وافر دوائره دائرة مؤتلفة، والسفينة قد اشتملت بشراعها الصماء وتشاممت، فلم نزل كذلك حتى جئنا (بندر الحديدة)، وقد أبدى فينا السأم أيده، فألفيناها عامرة بالخيرات، غامرة بالميرات، وفيها من أنواع الرطب ما يُلهي عن استماع الخُطب، ومن أقسام النُّوار ما يسلي الفرزدق عن النَّوار، فعلمنا أن تصغيرها ليس للتحقير، بل يعذب اسم الشيء بالتصغير، فاقمنا بها ثلاثة أيام حتى قضينا منها المرام)[1].



جانب من مدينة الحديدة

---

(1) المصدر السابق ص 64.

(في المخا)

ويواصل ابن معصوم المدني كلامه قائلاً: (ثم أقلعنا منها للمسير مُستبشرين بأن لم يبق من التعب إلاّ اليسير، وإن كنا مع أعظم من هذا على وعد، ولكن المشيئة لله فيما بعد. فرحْنا نكابد الأهوال، ونُقاسي حؤول الأحوال، إلى أن أسفر الصُبح عن ثاني شهر رمضان المُعظم فوافينا المخا معدن الأمن والرَّخا، وألفيناها عارية إلاً من الإيناس، خالية إلاً من كرام الناس، فكان أول من تلقانا فيها ببشره، وهفا علينا بطيب خلقه ونشره واليها، الخافقة رايات عزه وسُعده، الثابتة آيات فخره ومجده، ذو الأخلاق التي دلت على طيب الأعراق، والمكارم التي انعقد عليها الإجماع والإتفاق، من لم يزل العز الباذخ به يهيم مولانا زيد بن علي بن إبراهيم .ولما وافينا المخا اتصل بنا الخبر بأنّ العدوّ قصد جهة مولانا السلطان (عبدالله قطب شاه) - خلد الله مُلكه - فعاث فيها، وأغار على نواحيها بجموع لا تُحصى، وجنود لا تُستقصى، ولا يُعلم ما آل الأمر إليه، وما استقر الحال عليه، فأجمعنا على الإقامة بالبندر المذكور (المخا) إلى أن تُوافينا الأخبار من تلك الأقطار. والمخا بالخاء المعجمة المخففة وفتح الميم قبلها: مكان قريب من زبيد على ساحل البحر. كذا ضبطها اليافعي في تاريخه في حوادث سنة أربع عشرة وخمسمائة عند ذكر الشيخ أبي بكر بن جعفر بن عبدالرحيم المخائي. والعوام يقولون: المخا (بضم الميم) وهو بندر في غاية العمارة، فيه قصور مشيدة، وحدائق عديدة تحتوي على نخل كثير، ويُجلب إليه أنواع الفواكه من تعز وغيرها. ومستقى أهلها من آبار في جانبه الشرقي إلاّ أن ماءها لا يخلو من ملوحة، ويُجلب للأكابر من موزع ماء عذب جداً. وفيه حمام لطيف، بناه رجل من أكابر أتباع مولانا السلطان، يقال له : الشيخ ملك محمد، وأخبرني من كان حاضر بنائه، أن الشيخ المذكور فرش أرضه بالقرنفل، ثم ألقى عليه الجص

لتطيب رائحته، ولقد اكتسب أجراً عظيماً في بنائه، وكانت وفاة بانيه المذكور سنة ثلاث وسبعين وألف رحمه الله تعالى. وزرت بالمخا ضريح الشيخ أبي الحسن علي بن عمر الشاذلي وعليه قُبّة عظيمة معتنىً بها غاية الاعتناء. وفي أيام اقامتنا بالمخا انقضَّ كوكب عظيم هائل من جهة الجنوب إلى الشمال بعد المغرب فأضاءت له الدنيا وهو كشعلة النار، وترك وراءه ضياءً مستطيلاً جداً. وبعد انقضاء الموسم بالمخا وذهاب جميع السفن عنها خليت عمن رأيناه بها من الأكابر، فلم يبق فيها سوى رعاع أهلها من السوقة وغيرهم، حتى أن واليها المقدم ذكره لم يُقم بها، بل فارقها وأناب منابه غيره، فوجدنا لذلك من الوحشة والغُربة ما ضاعف علينا الكُربة، مع سوء عشرة الأتباع الذين كانوا في صُحبتنا، وعدم الألفة والأنس بهم.)[1].

(في اللُحيه)

ودخل ابن معصوم المدني كذلك - مدينة اللحيه - وعن ذلك يقول: (ومازالت السفينة تنساب بنا انسياب الحيه حتى وصلنا بندر اللحيه، فامتطينا صهوة الزورق، وظننا أن غصن الخلاص قد أورق ونزلنا البندر المعمور، فألفيناه بكل خيرٍ مغمور، وفيه من أنواع الفواكه ما يلتذ به كل مفاكه، فما ظنك بسقيم بحرٍ ناقه، من موزٍ كمكاحل الذهب، ورُطب كظلم الحبيب إذا وهب، وأعناب كالدرر المسلوكة، وحلاوات كالدنانير المسبوكة، فقضينا به يومنا، واستطبنا فيه نومنا، وكان فيه أول مشاهدتنا للكفرة أولي الجحيم، فاستعذنا بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ولم يكن يقع النظر قبل ذلك على أحدٍ ممن هو على غير ملة الإسلام عصمنا الله بهدي صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام)[2].

---

(1) المصدر السابق ص 64 -65، ص93، ص101، ص107، ص110. بتصرف يسير.

(2) المصدر السابق.

(مشاهداته في الهند)

وواصل ابن معصوم المدني مسيره حتى وصل إلى الديار الهندية، واجتاز بعض الأماكن في الهند حتى وصل إلى منطقة تُسمى (جيتابور) وعن ذلك يقول: (ثم نزلنا البندر وهو بندر جيتابور بجيم مكسورة وياء مثناة من تحت، فتاء مثناة من فوق، وبعد الألف باء موحّدة مضمومة، فواو ساكنة، فراء مُهملة وكان وصولنا إبّان الربيع بالديار الهندية، فألفيناه قد نشر مطارفه وأبرز تالده وطارفه. لا تقع العين إلاّ علي رياضٍ خضرة، وغياض يانعة نضرة، والأرض تشكو والسماء تُشكي، والروض يضحك والغمام يبكي ..فأقمنا بهذا البندر ثلاثة أيام، ثم انتقلنا إلى بندرٍ أعظم منه، وكان هذا فرضة لذاك، فسرنا في الخور على الزورق بين ذينك الجبلين حتى وصلنا إليه، وهو قرية لطيفة يُقال لها: (راجابور) براء مهملة وبعد الألف جيم ثم ألف فباء موحدة مضمومة فواو ساكنة فراء، وفيها عمارة حسنة لمصطفى خان أعظم وزراء عادل شاه،ولم يكن في تلك القرية عمارة سواها فنزلنا بها. وهذه القرية من أعمال كُوكَن بكاف مضمومة فواو ساكنة فكاف أخرى مفتوحة فنون، وهو صقع عظيم ليس في أرض الهند أكثر خراجاً منه لحسن ربيعه فإن المطر يكون فيه ستة أشهر لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً بخلاف سائر أرض الهند، فإنّ مُدة المطر فيها لا تزيد على أربعة أشهر.

ورأينا بهذا البندر أشياء لم نكن نراها من قبل منها: الطائر المعروف بالطاووس وتكنيه العرب أبا الوشي وترخيمه طويس، وهو من الطير كالفرس عزاً وحسنا، وفي طبعه العفة وحب الزهو بنفسه والخيلاء، والإعجاب بريشه، وعقده لذنبه كالطاق لا سيما إذا كانت الأُنثى ناظرة إليه، فإذا نظر في أعطافه ورأى ألوانه المختلفة زهى بنفسه وتاه .ومما رأيناه بهذا البندر من الحيوانات الغريبة: سنانير الزباد، الواحد منها كالسنّور الأهلي لكنه أطول منه جُثّة وذنباً، ولونه إلى السواد أميل، والزباد فيه شبيه

بالوسخ الأسود اللزج، ذفر الرائحة، يُخالطه طيب حسن يوجد في إبطيه، وفي باطن أفخاذه، وباطن ذنبه، وحوالي دبره. ولم يبرح معه جماعة يلاعبونه ويحرّكونه حتى يعرق فيسيل الزباد، فتمد له ملاعق الفضة ويؤخذ.

ورأينا بهذا البندر أشجاراً لم نكن نراها، منها: شجر الفلفل وهو أشبه ما يكون بشجر الدجر يلتف على شجرةٍ أُخرى ومن الغرائب ما رأيناه بهذا البندر، وهو عين على قلة جبل تنبع وتجري في السنة ثلاثة أيام ثم تغور وتنقطع، وكانت أول دخولنا البندر منقطعة، ثم بعد اقامتنا هنالك شهرين قيل: نبع ماؤها فقصدناها للتفرج، وقصدتها الهنود للعبادة.

وكنا قصدناها قبل ذلك لما وصفت لنا فرأيناها غائرها ومجراها يابساً. وقد اتخذت الهنود عندها حياضاً، ولما نبع الماء امتلأت تلك الحياض، وهو ماء عذب أبيض برّاق، ويُحكى مثل هذا كثير إلاّ أن للعيان موقعاً ليس للسماع .. ورأينا بهذا البندر معبداً عظيماً للهنود فيه أصنام من ذهب وفضة مصورة على صورة الإنسان وصور الحيات، وقد صور حولها من الصخر المنحوت أصنام كثيرة ،فمنها صور بقر، وصور رجال ونساء. وهذا المعبد بيت عظيم منحوت كله من الصحر الأسود تقصده كفرة الهنود من الآفاق وتنذر له النذور، ورايناهم يسجدون للأصنام التي فيه، والسرج فيه ليلاً ونهاراً لا تُطفأ، وله خدم وحجّاب وأتباع. وبجنبه نهر عظيم يخر من شاهق في بئر لا يُعلم قرارها وهي ملآنة يمر الماء عليها بين جبلين عليهما من أنواع الأشجار والأزهار ما يجلّ عن الوصف، ثم ينصب الماء إلى البحر. وحكى لنا أهل تلك البلاد أنّ بعض الوزراء أراد أن يعلم عُمق هذه البئر التي يمر عليها هذا النهر، فأنزل جماعة من الغاصة فلم يخرج منهم أحد ،ولا يُعلم ما صاروا إليه، وكثير من جهلة الهنود يعتقد في هياكلهم هذه القدم، وأمّا علماؤهم فيزعمون أنّها تُقرّبهم إلى الله زُلفى.)[1].

ومكث ابن معصوم في هذا البندر (كوكن) ثلاثة أشهر إلاّ عشرة أيام

---

(1) المصدر السابق ص 142 -144،ص150 -151،ص158 -159،ص160 -161.

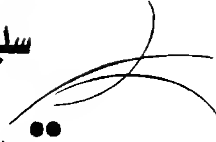
كما نصّ هو على ذلك في رحلته[1]، ثم وصل إلى (الدكن) وفيها رأى الفيل لأول مرة وعن ذلك يقول: (ورأينا في بعض المنازل فيلاً لبعض العمال ولم نكن نراه قبل ذلك، فعجبنا من عجيب خلقته، وغريب صورته، وعظيم جثته، فسبحان مُبدع العالم باقتداره، ومدبر الأشياء على مشيئته واختياره. والعرب تُكني الفيل أبا الحجاج، وأبا مزاحم، وأبا الحرمان، والفيلة: أُم شبل.)[2].



(1) المصدر السابق ص168.

(2) المصدر السابق ص 169.

سليم قُبطان



(القرن التاسع عشر الميلادي)

اا ـباشـي سـليم قُبطـان، رحالـة مصـري شـهير، ومـن رجـالات القـرن التاس عشر الميلادي ..أرسله محمد علي باشا الكبير مع أربعمائة رجل تحت إمرتـه لاستكشـاف منـابع النيـل، وكانـت نتيجـة هـذه الرحلـة الاستكشـافية كتـاب ألفـه البكباشـي سـليم قُبطـان تحـت عنـوان: (رحلـة إلى أعـالي النيـل الأبيض)...

. وصف رحلته .

..يقول الباحث نوري الجراح: (كان النيل قد شغل الجغرافيين والرحالة والمستكشفين من كل الأجناس، لا سيما خلال القرون الثلاثة الأخيرة، لكونه أطول أنهار العالم. وحتى بعثة الربان سليم قبودان كان النيل الأبيض ما يزال غير مستكشف، وبالتالي فإن مسألة ينابيع النيل ما برحت موضع تطلُع الشعوب كلها، وربما بقيت كذلك طويلاً في مستقبل الزمان كما نبه جومار في نص الرحلة المنشور في مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية. من هُنا تأخذ هذه الرحلة أهميتها كرحلة علمية رائدة، بنى على ما جاء فيها من ملاحظات ومعلومات، وما خلصت إليه من مُعطيات، جُل الرحالة والمستكشفين الأجانب الذين حاولوا لاحقاً استكشاف منابع النيل[1]، وابتدأ مسار الرحلة من الخرطوم، واستمرت 135يوماً،واقتطعت جزءاً من سنة 1839 -1840م. والرحلة وإن لم تُؤتي ثمارها كاملة فهي كما يقول فرانسوا جومار: (باكورة ثمار الحضارة التي انبعث في مصر ضوؤها مُنذ خمس وعشرين سنة. لهذا كانت جديرة في ما يتعلق بالبلاد التي هي

(1) مقدمة كتاب رحلة إلى أعالي النيل الأبيض لنوري الجراح ص 15 -16 بتصرف.

موضوعها، والأشخاص الذين قاموا بالاهتمام والعناية، وإن لم تتم نتائجها ولم تنضج ثمارها)[1].

ويذكر رفاعة الطهطاوي أن الرحلة: (سارت من الخرطوم في النيل المسمّى بالبحر الأبيض مسافة 500 فرسخ[2] حتى وصلت إلى جزيرة جانكير بمشروع جندكرو، وعندها رمال وصخور مُتكاثرة، فالشلالات تمنعُ السير عن النيل منعاً كلياً، فاقتصر القبودان على أخذ الاستعلامات اللازمة من أهالي تلك الجهة. فاستبان من ذلك أنَّ منبعَ النيل بقرب دائرة الاستواء على 30 مرحلة (المرحلة تُساوي 5فراسخ) فوق جزيرة جانكير، فتكونُ المسافةُ بينها وبين منبع النيل نحو 150فرسخاً تقريباً. وبهذا الاستكشاف سهل لسياح الإنكليز إتمام استكشافهم)[3].

. نصوص مُختارة من رحلته.

(قبيلة الدنكا)

«الثلاثاء 14من ذي الحجة ..هممنا بالرحيل مُنذ تنفسِ الصبح، ففي الساعةِ الثالثة رأينا في جهة الغرب حلّة كبيرة إلى غربها فرع صغير ووجدنا بين البوص والأدغال التي تحفُّ به زوارق صغيرة، وعلمنا أن الأهالي يزرعون التبغَ في الأجزاء المرتفعة، وكانوا يفرون مِنَّا كلما دنونا منهم، وقد عثرنا بداخل حلة على أربع نساء ورجل كانوا مختبئين بها، فأحضرناهم إلى مكاننا وسألناهم عن قبيلتهم وعن السبب الذي يُلجيء الأهالي إلى الفرار، فأجابوا بأنهم من قبيلة الدنكا، وأن الذين لجؤوا إلى الفرار خائفون، أما هم فإنهم لمرضهم لم يستطيعوا اقتفاء أثرهم، وكان في الحلل مقادير كبيرة من الأغذية، كالذرة والدجاج،فطلبنا منهم البقاء في حلتهم وعدم التحوُّلِ عنها،

---

(1) نفس المصدر السابق ص15.

(2) يقول الجراح: الفرسخ يُساوي 8كلم.

(3) المصدر السابق ص14.

وأن يحضّوا الفارين على العودة والثقة بنا والاطمئنان إلينا.»[1].

(النويريين)

«وصل إلى الشاطىء أربعون رجلاً ومعهم أربع بقراتٍ تركوها خلفهم، وكانت شُعورُهم طويلة حمراء اللون، وليس بينها وبين شعور غيرهم من السودانيين جامعة شَبَه. وكان في ذراع كل منهم دملج من سنّ الفيل أو الحديد أو النُحاس على شكل الأساور، وكانت بأيديهم الحِرابُ والنشابُ، وكانت أجسامهم موشومةٌ بالألوان كأجسام الشلك[2]، وإنما يتكلمون بلهجة تقرب من رطانة الدنكة، فقايضونا على ما معهم من الذُرة والسمسم بأشياءَ من الزجاج، وقد فعلوا ذلك على غير علم من شيخهم، لأننا لم نشك أبداً في أنه لو وقف على ما حصل منهم لما كتم غيظه، وهو ما حصل فعلاً إذ علمنا أنه وبخ هؤلاء الرجال على فعلهم، فأمرتُ عندئذٍ محمداً (مُترجم البعثة) بالذهاب إليه لطلبه فلم يحضر الرجل بنفسه، وإنما أرسل إلينا على يد آخر معزة وقليلاً من التبغ على سبيل الهدية، ولطالما سألنا هذا الرسول واستفهمنا منه فلم نستطع أن نعلم من أقواله أكثر من أنه هو وأصحابه من النويريين[3]، فأخلينا سبيله بعد أن أعطيناه شيئاً من المصنوعات الزجاجية، وقلنا له إنه كان يجب أن يُحضر معه شيخه لما كان في عزمنا من إتحافه ببعض الهدايا،وأفهمناه بواسطة العسكري محمد أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى خوفه، ثُم إذنا له بالإنصراف على أن يُرافقه هذا العسكري، على أن الشيخ لم يرضَ بوسيلة ما التسليم بتأكيداتنا الودية، ولكن أرادت الحكمةُ الإلهية أن يدنوا أحدُ رجاله من محمد ويُخبره بما عزم عليه أصحابه من الكيد لنا والتنكيل بنا. وكان مما أخبره به أن المعزة المُهداة كانت مسمومة، وأنّ

---

(1) رحلة إلى أعالي النيل الأبيض لسليم قبطان ص79.

(2) الشلك كما يقول نوري الجراح: قبيلة جنوب السودان مشهورة.

(3) النويريون كما يقول الجراح: قبيلة معروفة بجنوب السودان أيضاً.

الغرض الذي كانوا يسعون إليه هو اكتساب ثقتنا حتى إذا استنمنا إليهم عبثوا بنا شرَّ عبث، وعلى أثر هذا أركن الرجلُ إلى الفرار. ولقد بادر محمد بروايةِ ما حصل على مسمعي، فأمرتُ في الحال بفحص المعزة وبيان السبب في انتفاخ جميع أجزاء جسمها وخروج زبد من فمها، فتأكد لي أن هذه العلامات تؤيد الشبهة في حق أولئك الناس، وتدل على سوء نيتهم نحونا.

عندئذٍ أمرتُ بعض عساكر الذهبية الأولى بإطلاق النار فأطاعوا الأمر، فسقط رجل كان واقفاً بجوار الشيخ قتيلاً وفرَّ آخرون مُثخنين بالجراح، تاركين خلفهم ما كان معهم من الرماح والنبال، ولقد رأينا عندما تحركنا حُلة الشيخ المذكور واقعة إلى الشرق على مسافة نصف ميل تُحيط بها الأشجار الضخمة، وتفصلها عن النهر بحيرة تكاثفت على شواطئها الأشجار والأدغال.»[1]

(قبيلة الشلك)

..«رأينا في الحال ألفين من الشلك مجردين من الثياب ومدججين بالأسلحة، وكان كل منهم يحمل دُمُلجاً من سن الفيل أو الحديد أو البرونز، وكان النساء والرجالُ منزوعة من فكهم الأسفل الأربعة أسنان الأمامية منها وكان في أقدامهم دملج من الحديد. ويجعل الشلك بطرف رماحهم جُملةً من ريش النعام يحلونها بها، ومن العادات الشائعة عندهم أن ينام المرضى والعزابُ في الرماد وفي روث الحيوانات، فتتلوث وجوههم بهاتين المادتين. وهم يُقيمون الصلاة أمام شجرة مُحاطة بالبوص ومعلق بها الشيىء الكثير من الجلود والريش»[2].



(1) المصدر السابق ص 48 -49.

(2) المصدر السابق ص 39.

محمد بن علي بن زين العابدين

(القرن التاسع عشر الميلادي)

محمد بن علي بن زين العابدين .. رحالة تُونسي، ومن رجالات القرن التاسع عشر الميلادي .. ولد بتونس وبها نشأ، وقرأ القرآن الكريم في (الكُتاب)، وعمل بوصايا والده التي تحثه على طلب العلم، وبدأ في تحصيل العلوم بتونس، وارتبط بصداقاتٍ ومودة مع مجموعة من الطلبة القادمين من بلدان مجاورة لتونس للتعلم فيها، وكان معظم هؤلاء الطلبة مُهتماً بعلوم الخيمياء والسحر وفنون البحث عن الكنوز واكتشافها، وكانوا يتفانون في تحصيل هذه العلوم، (دافعهم في ذلك الفقر والحاجة)[1]، ومن خلال احتكاك (زين العابدين) بهم تأثر بما يرددونه في مناقشاتهم حول صحة هذه العلوم وكيف أنها تجلب الحظ السعيد والربح الوفير، وفي نهاية المطاف اتجه لتعلم هذه العلوم وعن ذلك يقول: (وكانوا خلال المناقشات ـ أي الطلبة ـ التي كانت تدور حول العلوم المذكورة ـ آنفاً ـ يروون عبارات لا معنى لها مأخوذة عمن زعموا أنهم قد جربوها أو منقولة عن المصنفات التي تناولت تلك العلوم. وكانوا مع ذلك يزعمون أنهم موقنون من صحة تلك العبارات بحكم أنهم قد عاينوها أو سمعوا عنها. وفي الأخير ونتيجة هذه الأقوال فإن فيض خزانة المخيلة تغلب على بوتقة فكري فولعت بتلك العلوم)[2].

وحاول (زين العابدين) تجريب هذه العلوم من أجل جني المال، إلا أن محاولاته باءت بالفشل فاتجه لعلومٍ أُخرى وعن ذلك يقول: (ورغم أني أجريت عدداً من التجارب وبذّرت في سبيل ذلك ما كان عندي من مالٍ دون أن أجني أي ربحٍ حقيقي، فقد عزفت عنها وصرفت كل جهدي لدراسة علم التمائم

---

(1) رحلة السودان لمحمد زين العابدين ص25.

(2) رحلة السودان لمحمد زين العابدين ص25 - 26.

وعلم أسماء الله الحسنى وعلم التنكير)[1]. بعد ذلك قرر الرحالة (زين العابدين) السفر إلى الشرق، لأجل أخذ علوم (التمائم وأسماء الله الحسنى والتنكير) عن أساتذة من الشرق، بعد أن تعذر وجود أساتذة (عِريفين) بهذه العلوم في المغرب حسب قوله[2]، فسافر إلى مصر ومنها إلى الحجاز لأداء مناسك الحج و(البحث عن رجال العلم ومؤلفاتهم)[3].

ثم رجع إلى مصر سنة ألف ومائتين وخمس عشرة للهجرة، وأقام بالجامع الأزهر، وأثناء ذلك عاوده الحنين مجدداً لدراسة علوم الخيمياء والسحر والعلوم الخفيه وعن ذلك يقول: (فعاودني الحنين إلى دراسة العلوم فكنت أربط أواصر الصداقة مع مسافرين كلما سنحت فرصة لذلك، وقمت خلال أبحاثي في العلوم الخفية بعديد التجارب حول ما كان يرويه ويعرضه بعضهم، وتبين لي عندها أني كنت في طريق الضياع وأن طوق آمالي كان على وشك التمزيق[4] نتيجة ما كان يردده البعض منهم بألم مؤكدين أن من يتعاطى هذه العلوم يختفي دون أن يترك أي أثر)[5] وبعد أن كان سيفقد الأمل في إتقان هذه العلوم والحصول على نتيجة أخبره بعضهم أنه يوجد في السودان أساتذة في هذه العلوم، فغادر مصر متوجهاً إلى (السنار)[6] وظل في هذه البلدة تسعة أشهر متنقلاً بين أطرافها ونواحيها، وهناك وجد أُناساً لهم اهتمامات كبيرة بالعلوم التجريبية، فطلبوا منه أن يُعلمهم إياها..، وسُرعان ما تنبه أنه في هذا البلد لن يجد ما سعى إليه، فارتحل إلى كردفان وهناك التقى بالشيخ إبراهيم الأسعردي أحد أتباع (الطريقة القادرية) المنسوبة للمتصوف الشهير الشيخ

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

(4) في كتاب رحلة السودان وردت هكذا والصواب (التمزق).

(5) رحلة السودان ص 26.

(6) السنار بلدة في السودان.

عبدالقادر الجيلاني[1]، ووصف (زين العابدين) الشيخ الأسعردي بأنه مُتبحر في العلوم العقلية والنقلية وله صفات تُبشر بالخير والسعادة[2]، وتبين لزين العابدين أن الأسعردي ارتحل لكردفان مُنذ ثلاث سنوات، بهدف (إجراء أبحاث في الخيمياء والسحر)[3]، فكشف رحالتنا للأسعردي أنه جاء لنفس السبب الذي جاء من أجله، وتوطدت العلاقة بينهما، لكنهما سُرعان ما اكتشفا أن هذا المكان ليس فيه ما أتينا من أجله .ومن هُنا ابتدأت رحلة الشيخ محمد بن علي ابن زيد العابدين، وتحول مسار رحلته من طالبٍ لعلوم (الخيمياء والسحر) إلى رحالة يُدون بادهاش كل مشاهداته في السودان.

. التعريف برحلته.

اختلف الدارسون في تحديد السنة التي ابتدأ فيها الشيخ محمد بن علي بن زين العابدين رحلته إلى السودان، لكنهم شبه متفقين على أن رحلته كانت في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، ..ولم يقف الاختلاف بينهم إلى هذا الحد فقط، بل وصل الخلاف بينهم، حول شخصية (رحالتنا) نفسه، فمنهم من نفى وجوده أصلاً، وآخرون لم ينفو وجوده لكنهم نفوا أن يكون قد سافر للسودان، ولكلا الفريقين حُجج فيما ذهبوا إليه ...كذلك بآءت محاولات الباحثين في العثور على معلومات أكثر عن حياة الرحالة (زين العابدين) ـ بالفشل ـ وعجزوا عن تحديد سنة مولده أو وفاته ..ويُعّول الكثير منهم على مخطوطة (النص العربي) للرحلة ـ المفقود ـ، في حال عثورهم عليه علّهم يجدو فيه معلومات أكثر وضوحاً عن حياة الرحالة التونسي، ذلك لأن نص الرحلة تُرجم عن الفرنسية، والترجمة الفرنسية أخذته عن النص الذي كُتب باللغة التركية ..يقول المستشرقان (لينودورمونو) و(جان لويس باكي) بعد إيرادهما مجموعة من الآراء حول مدى صحة الرحلة من عدمها: (لكل ذلك وجب علينا

---

(1) ورد في كتاب الرحلة (الكيلاني) والصواب ما أثبتناه.

(2) رحلة السودان ص 27.

(3)

أن نعترف بأننا لا نملك ولو شاهداً واحداً خارجياً يدل على صحة النص ولا حتى ما يؤكد أن المؤلف قد وجد فعلاً، وهذا مما

يؤسف له ..وفي سنة 1976م كتب لنا (ريشاردهيل) الذي كُنا استشرناه بخصوص نصنا ما يلي: أصبحت أشك في وجود زين العابدين مُنذ أن بدأ اهتمامي بالرحلة الأفريقية المزعومة ينمو ...إن الدلائل التي جاءت في مقدمتكم والقرائن التي بينتموها بما فيها ما يجيز امكان السفرة خيالية وما ينفي ذلك، جعلتني أقتنع بأن زين العابدين قد وجد فعلاً وأنه هو الذي كتب الرواية العربية الأصلية)[1] وفي التعريف برحلة الشيخ محمد بن علي بن زين العابدين يُحدثنا الدكتور عبدالله معاوية الذي نقل نص الرحلة عن الفرنسية إلى العربية فيقول: (من الأكيد أن القارئ يشعر بمتعة كبيرة عند مطالعته هذا النص، إذ اعتمد المؤلف فيه أسلوباً قصصياً توفرت فيه العديد من عناصر التشويق كالوصف والحوار وتناول موضوعات غريبة وعجيبة، واعتماد بنية روائية واضحة وسليمة، ابتداءً بظروف خروجه من تونس ثم رواية الأحداث التي واكبت مختلف تنقلاته بالسودان، محترماً تسلسلها الزمني، وخاتماً أخيراً رحلته برجوعه إلى تونس وبالعبر التي استخلصها من المجازفة التي قام بها. إن القارئ سُرعان ما يتعلق بهذا المؤلف ويعجب بشخصيته، فهو يحلم بأمور خارقة للعادة، ويطمع في الإثراء واكتشاف الكنوز، وهو بعكس ما تعود الكثيرون ترويجه عن شيوخ الجوامع ومدرسيها، رجل شُجاع مُغامر، قام بمفرده بسفر طويل شاق وخطير، وهو متفتح يُقدر الأمور حق قدرها، أُعجب بالكثير مما شاهده بالرغم من أنه كان يُشاطر معاصريه في اعتبار السودانيين متوحشين، وهو رجل إنسان وفيلسوف نقد نفسه وتهكم عليها، فنعت نفسه بالجشع بعد أن غنم الكثير من المال نتيجة سفره. كما يعجب القارىء بغزارة ودقة الملاحظات التي قدمها المؤلف فيما يخص عادات الشعوب

(1) مقدمة رحلة السودان ص 22.

التي زارها، وتقاليدها، والتي يحق لنا أن نعتبرها مرجعاً أثنوغرافيا وأثنولوجيا. إن هذه الرواية تهمنا حتى لو لم يذهب المؤلف فعلاً إلى السودان، ذلك لأنها بقدر ما احتوت عليه من معلومات فإنه يُمكن اعتبارها من أهم المصادر التي تمدنا بصورة نظرة التونسيين إلى السودان في ذلك العصر، ومن الأكيد أن السودان عبر بو سعدية والسطمبالي، غذى ولا يزال يُغذي الخيال التونسي.)[1]

.نصوص مختارة من رحلته.

(ملك كردفان)

«الرعايا يدعون الملك أباهم، ثم إن من أصبح وزيراً عليه أن ينزع عن ثياب الرجولة، فتقص خصيتاه وعليه بعد أن يتم مداواته أن يضعهما أمام السلطان وكأنه يُريد أن يُفهمه: ها أنا ذا يا مولاي قطعت عني هذه الأشياء التي هي من أسباب الشهوات الجنسية، ومن الآن فصاعداً أنا قادر على التفرغ لشؤون الرعية ولخدمة بلاطك السعيد بكل انتباه وبدون أية طوية. وأخيراً يُفتح له باب الحرم الملكي ويدخل عندئذ في خدمة الملك والحرم، كما يتولى شخصياً إدارة شؤون الرعية عند غياب السلطان»[2].

(في دارفور)

«ومهما قد يكون لأهل بلد (دارفور) من الإنسانية، فإنهم عُراة من كل جهة من الخارج، لا يحجب عوراتهم ولا بسترها إلا شيء من الشعر المضفور يشدونه إلى حزامهم، أما الذين يسكنون الجبال علاوة على أن جُلهم عُراة تماماً، فإنهم لا يزيدون على أن يكونوا قطيعاً من الحيوانات الجاهلة بالمعتقدات الدينية وبمستلزمات هذه الدنيا. يُسكن بعض الأثرياء الذين يعيشون في المدن هؤلاء السود في مزارعهم قصد التناسل وتزايدهم ومثلما نبيع

---

(1) مقدمة كتاب رحلة إلى السودان.

(2) رحلة السودان ص28.

نحن الغنم والبقر فإنهم في كل سنة يبيعون الذين يصلحون لذلك من أطفالهم منهم من يملك خمسمائة أو ستمائة عبد من الذكور والإناث، ويجيئهم التجار في كل فصل يشترون منهم عبيداً ذكوراً وإناثاً، يختارونهم لبيعهم فيما بعد»[1].

(ثقافة الخصاء في كردفان ودارفور)

«اعتادت الرعية [في كردفان][2] مشاهدة عملية الخصاء ولذلك فإنه عندما يأسر أحد الشُبان عدواً له فإنه يستأصل خصيتيه ويجففهما في الشمس ثم يتقلدهما سمة لشهرته وشجاعته وما دام لم يفعل ذلك فلا يُمكن له الزواج. لذا من صارع خصمه كانت يده على السكين للخصي أكثر منه للقتل، وإذا شعر الخصم أنه مهزوم لا محالة واستسلم فإنه يفعل ذلك دون أن يقتله ..وعلى قمم [جبال دارفور][3] يعيش سود كثيرون كثرة أمواج البحر الأسود، وبما أنهم كانوا على هذا البعد من أصول الحضارة والعادات فإن جُل هؤلاء عُراة من الرأس إلى الرجلين، ورغم هذه الهمجية فإنهم يُظهرون لملكهم وأعوانه طاعة دائمة، لذلك يمكن أن يتجول الشخص بينهم طوال أيام كاملة وهو مصحوب بأحد خدم السلطان دون أن يمسوه بأي سوء ...يتميز الأشخاص الذين هم في خدمة السلطان بالطربوش الذي يُغطي رؤوسهم والقوس والسهام التي يتسلحون بها، وإن كانت لبعض القرويين سيوف عرضها عرض اليد، فإن ذلك لا يُمثل قاعدة هامة وروى المسافرون والتجار الذين طافوا أنحاء هذا البلد أنه بالرغم مما للرجال هناك من سلوك وعادات ليست بشرية إلا جزئياً، فإن نساءهم يُحافظن بعكس ذلك على عادة من أحسن العادات هي تلميع أجسامهن وتجميلها بدلكها بالزيت، وإذا كان لشخص بنت وأحبها أحد فإنه

---

(1) رحلة السودان ص32 -33.

(2) ما بين معكوفين من عندي للتوضيح.

(3) ما بين معكوفين من عندي للتوضيح.

يُخالطها ويذهب عندها متى شاء ويُداعبها ويمزح معها دون أن يضع يده ولو على جزء من قميصها وذلك إلى يوم الزواج، هذه العادة هي خاصة بالمدينة أما بالريف وحسب المكان فإن المسلمين يتزوجون وفق الشرع أما الآخرون فيأخذون النساء غصباً وبصفة خاصة فإنه يُمكن بل يحصل فعلاً أن يقتل رجال أصحاب جرأة وشجاعة تتدلى في رقابهم عقود مكونة من سبعة أزواج من الخصي، زوج المرأة التي يطمعون فيها ثم يخطفونها أما أنا فشاهدت مرة الأمر التالي: كان شاب يُحب ابنة أحد أعيان البلد حُباً لا يقدر الإنسان على وصفه، وكانا قد تعودا على التلاقي، لكن أب الفتاة منعهما من أن يتقابلا لأنهما ليسا من نفس الوسط، وذات يوم بعد أن مزق الشاب طوق الصبر والخضوع، جذب الفتاة إليه، وبعد أن فض بكارتها لاذ بالفرار لكن الفتاة كان لها عاشق آخر كانت تُحبه للغاية. وكانت تلتقي به بعلم أبيها، وحين علم هذا الشاب الأمر تملكه اليأس فأخذ يسحق خصيتيه لطماً بحجارة في دار الفتاة حتى أغمي عليه، ولما شاهد أب الفتاة حاله فهم أنه لم يبق لانقاذه إلا استئصال خصيتيه، فنادى جراحاً ماهراً قام بالعملية، وبعد أن أمر بتقديم بعض العلاج له أرسله إلى بيته. أما البنت فلما تبينت أنها ستفقد بهذه الصورة معشوقاً وفياً انتظرت نزول الليل، ولما استغرق الجميع في النوم ذهبت وشنقت نفسها في شجرة، وفي الصباح لما رأوا ما أصابها نشبت خصومة بين قبيلة أب الفتاة وقبيلة الرجل الذي تجرأ على اغتصابها متسبباً بذلك في هذه الخسائر، وارتفع عدد الضحايا إلى ثمانية أشخاص من جهة الفتاة وخمسة عشر من الجهة الأخرى، وكانت الغلبة لجماعة الفتاة الذين انضم إليهم أفراد قبيلة المعشوق الذي خصى نفسه»[1].

(آكلي لحوم البشر)

«أهالي هذه الجبال - أي جبال دارفور - يتحاربون من حين إلى آخر وفضلاً

---

(1) رحلة السودان ص 29 وص 34 -36.

عن كونهم يبيعون عادة للقرويين الأشخاص الذين أسروهم فإنه يحصل أحياناً أن يأكلوهم، لكن هذه الحالة تحدث حالياً بصفة نادرة في المنطقة التي نحن بها الآن، هذا ما حدثني به [رفيقي][1] فصرخت ثانية قائلاً: هل من الممكن أن يأكل أُناس أناساً؟ عندها أوضح لي ما يلي: ذلك ما يفعل جميعهم، فعندما يقع أحد الأعداء بين أيديهم أسيراً يأخذونه إلى مكان بعيد عن المكان الذي هم به وهُناك يذبحونه ويأكلونه بعد شي لحمه على النار، ولم يترك هذه العادة إلا المسلمون. وعندما شاهد علامات الذُعر على وجهي طمأنني قائلاً: إنه حسب ما ورد ذكره سابقاً فإن هذا الأمر لا يحدث إلا عند الحروب ولا خوف على المسافرين من ذلك.

... ولما أقبل الليل قدم طفل جميل ورقيق يُناهز عمره الاثنتي عشرة سنة وهو يحمل على رأسه قادوساً من خشب فيه سكين وبعد أن وضع قادوسه أمامي مكث ساكناً وعيناه تنظران إلى الأرض، ورغم أني سألته عما يريد فإننا لم نستطع التفاهم بأي حال. جاء لزيارتي ونحن على تلك الحال أحد القادة الذين كانوا قد جاؤوني خلال النهار، فلما سألته عما يريد الطفل الصغير أجابني: إني أرسلته إليكم إكراماً لكم كي تأكلوه بعد ذبحه وطبخه، فسألته: هل يُعقل أن يؤكل إنسان وأن يكون وليمة؟ فأجاب: رغم أن هذا الشخص ينتمي إلى الجنس البشري إلا أنه ليس منا بل من أعدائنا ومثلما يأكل هؤلاء أفراد قبيلتنا الذين يقعون بين أيديهم خلال المعارك فإننا نأكل من يقع منهم بين أيدينا، وخاصة إذا كانوا كهذا الطفل لحمهم صغير طري.»[2]



(1) ما بين معكوفين من عندي للتوضيح.

(2) المصدر السابق ص 55 -60 وص 60 -61.

رفاعة الطهطاوي

(1801 - 1873 هـ)



رفاعة رافع الطهطاوي ..علامة، أديب، رحالة .وضعه الدارسون والباحثون على رأس قائمة أعلام النهضة العربية في العصر الحديث. ولد في مصر سنة 1801م و(تلقى العلم بالجامع الأزهر ثم دخل في خدمة محمد علي كواعظ في العساكر الجهادية)[1]، وكانت وفاته في مصر أيضاً سنة 1873م، بعد أن أثرى العقل العربي بأطروحاته وأفكاره النيرة، التي تدعو إلى النهضة والعلو.

. وصف رحلته .

ترك رفاعة رافع الطهطاوي كتاباً أثيرياً في فن الرحلات، أسماه: (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) أودع فيه خلاصة مشاهداته ونتائج رحلته في فرنسا، فكان (أول عربي في العصر الحديث يترك لنا نصاً ضافياً عن رحلة إلى بلد أوروبي)[2].

ورحلة الطهطاوي إلى فرنسا (رحلة تكليفية من قبل السلطان محمد علي والي مصر حينذاك للذهاب إلى فرنسا باعتبارها عاصمة الحضارة الغربية، وكانت للتعلم والتثقف بعلم فرنسا وفنها ونقل ما يُمكن نقله إلى مصر)[3]

---

(1) الرحلة العربية الحديثة من أوروبا إلى الولايات المتحدة، د/يوسف الشويري ص19.

(2) المصدر السابق ص 19 بتصرف.

(3) ادب الرحلات، د/حسين محمد فهيم ص 202.

(وأرسله محمد علي باشا حاكم مصر برتبة مبعوث وإماماً للصلاة «صُحبة الأفندية المبعوثين لتعلم العلوم والفنون الموجودة بهذه المدينة البهية». كان ذلك في العام 1826م ومكث في العاصمة الفرنسية حتى 1831م، عاد بعدها إلى مصر ليتولى مناصب عدة في الترجمة والتعليم والتحرير والتأليف)[1].



محمد علي باشا الكبير

و(سجل قلم - الطهطاوي - انبهاراً بكثير من معالم الحضارة الغربية، ولكنه أوضح في الوقت نفسه تحفظه وذلك في إطار تربيته الدينية على الكثير من عادات وأخلاقيات الفرنسيين، وإن تقرير رحلة الطهطاوي يُعد في نظرنا توثيقاً إثنوجرافياً دقيقاً وشيقاً للعديد من أوجه الحياة الفرنسية، كما شاهدها وتفاعل معها مدة خمس سنوات قضاها بباريس. وتُذكرنا رحلة الطهطاوي (القرن الثالث عشر الهجري) برحلة ابن فضلان (القرن الرابع الهجري) وما بينهما من تشابه واختلاف. فكلتاهما قد ابُتعثت من قبل الحاكم إلا أن ابن فضلان ذهب ليعلم، أما الطهطاوي فقد ارتحل ليتعلم. وتتصل هذه المقارنة -في رأينا -بين وضعين حضاريين مختلفين، فابن فضلان المُعلم قد عاش إبان حقبة الحضارة العربية الإسلامية الزاهية، أما الطهطاوي الطالب فقد عاصر فترة اضمحلال تلك الحضارة، والرغبة في إصلاح الوضع الحضاري الذي آلت إليه مصر في ذلك الحين)[2] والطهطاوي في رحلته (ينظر إلى الأمور ويصفها ويناقشها انطلاقاً من ثقافته

---

(1) الرحلة العربية الحديثة، د/يوسف الشويري ص 19.

(2) أدب الرحلات، د/حسين فهيم ص 202.

وتربيته، فهو لا يتحدث كمن لا يملك معياراً محدداً يقيس به الأمور ويضبط المسائل)[1]. وأشار عليه بتدوين رحلته إلى فرنسا شيخه حسن العطار[2]، حيث يقول: (فلما رُسم اسمي في جملة المسافرين، وعزمت على التوجه أشار علي بعض الأقارب والمحبين - لا سيما شيخنا العطار، فهو مولع بسماع عجائب الأخبار، والاطلاع على غرائب الآثار - أن أنبه على ما يقع في هذه السفرة، وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة، والأشياء العجيبة،وأن أُقيده ليكون نافعاً)[3].

- نصوص مختارة من رحلته.

(نساء باريس)

«النساء بها - أي باريس - مُنعمات سواء بمالهن أو بجمالهن، وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء، فإن الإنسان يحرم نفسه ويُنزه عشيقته، وأما الخيل فإنها تجر العربات ليلاً ونهاراً على أحجار أرض باريس خصوصاً إذا كانت المستأجرة للعربية امرأة جميلة، فإن العربجي يُجهد خيوله ليوصلها إلى مقصدها عاجلاً، فالخيل دائماً مُعذبة بهذه المدينة»[4].

(مدينة باريس)

«هذه المدينة كباقي مُدن فرنسا وبلاد الافرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات،وإن كانت مدينة باريس من أحكم سائر

---

(1) الرحلة العربية الحديثة،د/يوسف الشويري ص20.

(2) المصدر السابق ص20.

(3) تخليص الإبريز في تلخيص باريز للطهطاوي، نقلا عن أدب الرحلات، د/حسين فهيم ص 202 بتصرف.

(4) تخليص الإبريز في تلخيص باريز للطهطاوي، نقلا عن الرحلة العربية الحديثة،د/يوسف الشويري ص23 -24.

بلاد الدُنيا وديار العلوم البرانية»[1].

(أطباء باريس)

«الحُكماء في باريس كثيرون جداً، حتى يوجد في كل خط (شارع) عدة حُكماء، بل الطُرق مملوءة من الحكماء، حتى أن الإنسان إذا أُصيب بداء فإنه لا بد أن يجد الحكيم حالاً لكثرة الحُكماء»[2].

(الرقص مع النساء)

«في باريس كل رجل عزم امرأة يرقص معها، فإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا، وسواء كان يعرفها أم لا، وتفرح النساء بكثرة الراغبين في الرقص معهن، ولا يكفيهن واحد ولا اثنان، بل يُحببن رؤية كثير من الناس يرقصوا معهن، لسآمة أنفسهن من التعلق بشيء واحد»[3].



---

(1) المصدر السابق ص 23.

(2) المصدر السابق ص 25.

(3) المصدر السابق ص 24 -25 بتصرف.

أحمد فارس الشدياق

(1804 - 1887م)

أحمد فارس الشدياق ..رائد من رواد النهضة الكبار في العالم العربي ...أديب، لغوي،شاعر،كاتب، صحافي، رحاله ...ولد في عشقوت (لبنان) سنة



1804م، و(كان والداه من سُكان الحدث قرب بيروت)[1] وفي السنة التي ولد فيها (أحمد) اتجها إلى عشقوت (ولما بلغ الرابعة من عُمره، عاد أهله إلى الحدث حيث نشأ فارس وترعرع. وفي مدرسة تلك القرية تلقى مبادىء القراءة ثم أُرسل إلى مدرسة عين ورقة في كسروان حيث أتم دروسه الابتدائية. وكان له ميل شديد إلى المطالعة، فأعانه أخوه أسعد على زيادة التحصيل، فتقدم في معرفة العربية والسريانية، وأتقن الخط العربي. وما إن بلغ الخامسة عشرة حتى تُوفي والده. فلم يقعده ذلك عن متابعة التحصيل. على أنه اضطر إلى العمل للقيام بأوده وأود والدته. فانصرف إلى النساخة وبقي على ذلك مدة من الزمن. ثم عنَّ له أن يشترك مع أحد أصدقائه في البيع. فاستبضعا بضاعة واكتريا حماراً لحمل البضاعة والمتاجرة بها طلباً للكسب فلم يُفلحا. وهكذا ترك صاحبنا هذه التجارة الخاسرة (واقتضى طريقاً آخر من طُرق المعاش» ،وهو طريق التعليم. فأُتيح له أن يُعلم بنتاً لأحد الأمراء. ولكن التعليم لم يُبلغه ما أراد، فرجع إلى النساخة وإن كان ذلك - كما يقول - على غير المراد. ولا ريب أن عمله في نسخ الكتب قد أفاده إذ وسع آفاق المعرفة أمامه، ومكنه من اللغة وأساليب الكتابة. وكان أخوه قد اتصل

---

(1) الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، أنيس المقدسي ص141.

بالمرسلين الأميركيين وعمل معهم، ثم رأى في تعليمهم الديني ما حمله على اعتناق مذهبهم.

فاضطهده رؤساء الدين الماروني في ذلك العهد اضطهاداً عنيفاً. وكان اضطهاد أخيه من جُملة الأسباب التي دعت صاحبنا إلى كره المقام في لبنان والتجائه إلى الارسالية الأميركية. فأرسلوه إلى مصر سنة 1826 ليعلم المُرسلين هُناك اللغة العربية. لما بلغه موت أخيه معذباً في دير قنوبين، وذلك سنة 1830، ثارت نقمته فهاجم رؤساء الدين مُندداً بأعمالهم وتعصبهم.

وفي مصر انكب فارس على الدرس والمطالعة برعاية استاذين كبيرين هما محمد شهاب الدين محرر الوقائع المصرية، ونصر الله الطرابلسي. فأتقن علوم العربية ولمع اسمه في عالم الكتابة. ولم يلبث أن عُين خلفاً لرفاعة الطهطاوي في تحرير الوقائع.

أقام في مصر تسع سنوات تزوج أثنائها ورزق ولدين هما سليم وفايز. ثم طلبه المرسلون الأميركيون في مالطه ليُعلم العربية في مدرستهم ويُصحح بعض مطبوعاتهم ومنشوراتهم العربية (وذلك قبل انتقال مطبعتهم إلى بيروت). فأقام في مالطه 14سنة مُكباً على التدريس والتصنيف وتصحيح المطبوعات. وهناك اعتنق المذهب الإنجيلي. ثم رأت جمعية الكتاب المقدس أن ينتقل إلى انكلترا كمساعد للدكتور لي (Lee) في ترجمة التوراة إلى العربية. فقضى مُدة في هذه المهمة عاد بعدها إلى عمله السابق في مالطه. وسنحت له فرصة وهو في مالطه فزار تونس زيارة قصيرة. اتيح له في اثنائها الاتصال بالباي حاكمها فمدحه بقصيدة ونال رضاه وعطفه. وطُلب ثانية إلى انكلترا لاكمال ترجمة التوراة فأقام فيها عدة سنوات، حتى إذا انتهى من عمله هُناك انتقل إلى باريس. واتفق أن باي تونس زار فرنسا (والشدياق في باريس) وفرق مالاً كثيراً على فقرائها، ثم عاد إلى بلاده. فأرسل إليه الشدياق قصيدة يمدحه ويُطري

جوده واحسانه، فاهتز لها الباي. وما عتم ان أرسل له مركباً حربياً يستقدمه إلى تونس. فسافر إليها والآمال تملأ صدره. وهُناك قوبل بحفاوة واكرام، وعُهد إليه بتولي التحرير في جريدة الحكومة الرسمية «الرائد التونسي». وفي تُونس اعتنق الإسلام وسمى نفسه أحمد فارس الشدياق)[1].

و(ما لبث أن تلقى دعوة من السُلطات العُثمانية في اسطنبول للعمل هناك. وفي اسطنبول باشر الشدياق باصدار جريدة «الجوائب» التي صدر العدد الأول منها في 2تموز (يوليو) 1861، وتوقفت عن الصدور في العام 1884. وحقق الشدياق عبر «الجوائب» شُهرة عربية وإسلامية وعالمية)[2] بعد ذلك (اعتراه ضعف في بصره فاضطر إلى اعتزال العمل والجهاد الأدبي. وبعد سنتين من اعتزاله العمل زار مصر فلقي فيها ترحاباً وحفاوة من عُظماء البلاد ورجال العلم فيها. لكن مقامه فيها لم يطل فعاد إلى الاستانة حيث وافاه الأجل المحتوم في 20ايلول سنة 1887. وكان لوفاته رنّة في جميع الأقطار. وعملاً بوصيته نُقل جثمانه إلى لبنان، فاستقبله كبار القوم ودُفن في الحازمية قُرب بيروت)[3].

وترك مجموعة من الكُتب النفيسة والشهيرة منها «الساق على الساق في ما هو الفارياق» و«الجاسوس على القاموس».

. وصف رحلته.

للرحالة أحمد فارس الشدياق كتابان في الرحلة الأول منهما (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) والثاني (كشف المخبا عن فنون أوروبا) والكتاب الأول ألفه في أخبار جزيرة مالطة التي (قضى فيها أكثر من 14سنة فعرفها معرفة

---

(1) المصدر السابق ص 141 -143.

(2) الرحلة العربية الحديثة من أوروبا إلى الولايات المتحدة، د/يوسف الشويري ص29 -30.

(3) الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، أنيس المقدسي ص144.

دقيقة وألم بأحوال سُكانها وطبائعهم إلمام المُطلع الخبير)[1]. وأما الكتاب الثاني فـ(بعد أن امضى الشدياق في مالطة نحو 14سنة، ساقه عمله إلى بلاد الإنكليز وكان ذلك في سنة1848، فوصف لنا سفره من مالطة إليها وما شاهده في طريقه من مُدن وأقوام، حتى إذا وصل إلى انكلترا واستقر فيها حدثنا عن أحوالها وعادات أهلها قارناً ذلك بكثيرٍ من المعلومات التاريخية والجغرافية والصناعية والزراعية وغيرها ..وله كلام طويل في وصف عادات الإنكليز، وقد زار في انكلترا عدداً من المُدن وتعرف بحياة القُرى، كما زار بعض حواضر اسكوتلاندا وأماكنها المشهورة. فجاءت أوصافه لبريطانيا وسُكانها شاملة وافية.)[2] وارتحل بعد ذلك من انكلترا إلى فرنسا، وعقد مقارناتٍ عديدة بين أخلاق وطباع الفرنسيس والإنكليز ...(ولعل الشدياق كان العربي الوحيد الذي عاين الريف الأوروبي وحياة سُكانه عن كثب، إذ أنه سكن في قرية قُرب جامعة كامبردج أثناء ترجمته التوراة)[3].

. نصوص مُختارة من رحلته .

(آداب المائدة عند الإنكليز)

«وعادتهم في المآدب أن يجلس الضيوف على المائدة، وتجلس صاحبة الدار في الصدر، وتأخذ في أن تُقطع لهم شرائح اللحم رقيقة، وتناول الصحفة للخادمة فتضعها الخادمة أمام الآكل، ولو حصل خمس حصص من تلك الشرائح لما شبع. والإكثار من أكل الخبز عندهم مظنة الهمجية. وقد أدبت مرة عند أحد أعيانهم، فلما جلسنا على المائدة أخذت الفوطة ووضعتها على حجري وكانت كسرة الخبز مخبأة فيها فوقعت وأنا لا أدري واستحييت أن

---

(1) المصدر السابق ص 154.

(2) المصدر السابق ص156 -157 بتصرف.

(3)الرحلة العربية الحديثة من أوربا إلى الولايات المتحدة، د/يوسف الشويري ص33.

أطلب غيرها، وهم ظنوا أني تنكلزت في بلادهم. فلما تحركنا للقيام إذا بالكسرة لاصقة بنعلي فتذكرت حينئذ قصة ذلك السائل الذي طرق باب بخيلٍ فرمى له بكسرة خبز أخت كسرتي هذه التي انتعلتها فأخذها وتأملها، ثم طرق الباب مرة أُخرى فقال له صاحب الدار قد أعطيناك فلم لا تنصرف؟ قال قد أعطيتموني هذا الدواء ولم تقولوا لي كيف أستعمله.

وإذا كان على المائدة لونان من الطعام أو ثلاثة كأن يكون مثلاً شواء من البقر ودجاج خيرتك الست أيهما تُريد فإذا تناولت من لون سقطت شفعتك من الثاني، وندر أن تُعطيك منهما كليهما، ولا يُمكن أن تُعطيك شيئاً أو بالأحرى من شيىء إلا إذا استطلعت رأيك فيه أولاً»[1]

(طبائع الانكليز)

«إنهم أيّان يتغربوا يظلوا لهجين بذكر بلادهم وما فيها من المحاسن واللذات وقد رأيت كثيراً ممن سافروا إلى بلادنا وإلى مصر وباريس وغيرها فأثنوا على تلك البلاد بشيىء وافق طباعهم منها، إلا أنهم عند ختم الكلام يقولون: (لا شيء مثل انكلترا) ..ومن طبع الانكليز أنه متى وثق أحدهم بإنسان وعرف منه الجد والاستقامة والأمانة، يأتمنه على زوجته وبناته فيذهبن معه ليلاً ونهاراً بلا مانع. ومن يحضر إلى بلادهم بوصاة من عند معارفهم احتفلوا به وعدوه منهم وصموا آذانهم بعد ذلك عن سماع ما يُقال فيه من الذم ..ومن طبع الخاصة منهم أن يتجنبوا معاشرة العامة ما أمكن، ولذلك سببان: أحدهما وهو المشهور عند الناس، عظم الفرق بين الفريقين في الأطوار والأخلاق. فإن العامة في هذي البلاد ليس لهم حظ من الكياسة ولا تكاد خلائقهم وعاداتهم تُرضي أحداً من البشر ممن كان ذا ذوق سليم وطبع

---

(1) كشف المخبأ عن فنون أوروبا، أحمد فارس الشدياق نقلاً عن كتاب أدب الرحلات للدكتور حسين محمد فهيم ص153.

مستقيم. فالأوباشية ظاهرة عليهم في كلامهم وحركاتهم وتخيرهم الألوان، وفي تصرفهم»[1].

(أغنياء الانكليز وفقرائهم)

«ومع ما هم فيه (أي الأغنياء) من البحبحة والنعيم فلا بد وأن يكون لكل منهم دار في الخلاء (أي الأرياف) يُسكنها في الصيف ففي هذا الصقع الجليل تسطع أنوار السعادة من أبراجهم العلوية. وهُناك ترى الخدم والحشم، والخيل المُطهمة والعواجل (المركبات) النفيسة. وهناك تُمد الموائد بما عليها من الأطعمة الفاخرة المجلوبة من جميع البلدان وهُناك تتيه الكلاب على كثيرٍ من بني آدم ممن يتضورون جوعاً ويهلكون من الوسخ والبرد والعُري، ومن أكل اللحوم النتنة ...فليس بين الجنة والجحيمَ في هذه المدينة بعد ما بين الجنة والنعيم في الآخرة»[2].

(اوغاد مالطه)

«والأوغاد يترددون حيث تتردد الخاصة وذوو الفضل. فقلما رأيت مكاناً خالياً منهم. وإذا لقوا أحداً من الوجوه سلقوه بألسنتهم ولمزوه. وأسوأ من ذلك أن القُضاة يعتبرون هؤلاء الأنجاس عند التحاق والتخاصم اعتبار الخيرين من الناس. وهذا الذي جراُهم على التمادي في القبائح. وهؤلاء الأرذال إذا شربوا قدحاً واحداً من الخمر طافوا في الأسواق وهم زائطون ضاجون يُظهرون بذلك طاقتهم على الإنفاق»[3].

---

(1) كشف المخبأ عن فنون أوروبا، أحمد فارس الشدياق نقلاً عن كتاب الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة لأنيس المقدسي ص157.

(2) المصدر السابق ص 160.

(3) المصدر السابق ص155.

(إسراف الإنكليز)

«ولهم إسراف زائد في الأثاث، فإن أسرتهم، وموائدهم، وأصونتهم، وكراسيهم، وخزائن كتبهم من الخشب الماهيكون ..ومع ذلك فلن ترى لسيدة الدار حُلياً من الماس أو شالاً من الكشميري. وهي عكس عادتنا. ومن اسرافهم أن يُغطوا الدرج بالجوخ المنقوش أو الزرابي الفاخرة، وفوقها الكتان النفيس يدوسون عليه. ومراحيضهم في غاية النظافة والترتيب، حتى أن الفرنسيين إذا ذكروا مرحاضاً على هذه الصفة قالوا إنه مرحاض إنكليزي»[1].



(1) المصدر السابق ص 156.

محمد عياد الطنطاوي

(1810 - 1861م)

محمد عياد بن سعد بن سُليمان عياد الشافعي المرحومي الطنطاوي



...علامة، أديب، لغوي، شاعر، رحالة ...(ولد في قرية نجريد من أعمال مركز طنطا، سنة 1225هـ/1810م، ويُنسب إلى قرية مرحوم من أعمال مديرية غربية مصر والتي كان أبوه منها، حيث عمل والده سعد ببيع القماش والصابون والبن. وفي بلدته مرحوم تلقى الطفل محمد عياد علومه الأولية، حيث حفظ القرآن وأعاده، ومن ثم قصد طنطا لإكمال دراسته، وهي المدينة التي كانت حافلة بالعُلماء والفقهاء والقُراء)[1] ثم انتقل محمد عياد الطنطاوي إلى القاهرة ودرس على مجموعة من شيوخ الأزهر، وظل طالباً للعلم حتى بلغ فيه شأواً لا يُبارى، واشتهر ذكره بين الناس، وكون علاقات واسعة مع بعض المستشرقين الروس، ودَرس عليه بعضهم علوم الأدب واللغة والشعر.

. وصف رحلته .

ونتيجة لهذه العلاقة طُلب من مدرسة الألسن الشرقية بروسيا. لتدريس اللغة العربية فيها، وطلبت روسيا ذلك رسمياً من محمد علي باشا الكبير، الذي وافق بدوره على (إعارة كلية الألسن الشرقية، الشيخ محمد عياد الطنطاوي لتدريس العربية)[2].

---

(1) مقدمة رحلة الشيخ الطنطاوي للدكتور محمد عيسى صالحيه ص 10.

(2) المصدر السابق ص 13.

وكانت بداية رحلة الشيخ الطنطاوي إلى روسيا سنة 1840م، وظل في روسيا مُعلماً ورحالة (أكثر من عشرة أعوام)[1]، زار فيها مُعظم المدن الروسية، وكانت نتيجة هذه الإقامة الطويلة كتاب بعنوان: (تُحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا)، جمع فيه كل مشاهداته في بلاد الروس ..يقول الدكتور محمد عيسى صالحيه: (كان الشيخ محمد عياد الطنطاوي يقضي إجازته متنقلاً بين البلدان الروسية، يطوف المتنزهات والغابات ويحضر الاحتفالات الرسمية والشعبية، وقد حظي بعناية مُتميزة في الدولة الروسية، حيث عُين مستشاراً في الدولة الروسية، وقلده القيصر نشان وسام ستانيسلان ووسام حنه، كما قلده القيصر خاتماً مرصعاً بالألماس الغالي)[2] ويقول الدكتور صالحيه أيضاً: (إذا كان رفاعة الطهطاوي رائد عصر التنوير من خلال بعثته في أوروبا الغربية، فإن محمد عياد الطنطاوي هو رائد عصر التنوير من خلال وفادته في أوروبا الشرقية)[3].

..وإلى جانب رحلته هذه فله كُتب أخرى، أغلبها ما زال مخطوطاً، وكانت وفاة رحالتنا (الطنطاوي) في (29أكتوبر سنة 1861م، ودُفن في مقبرة فولكوفو الإسلامية)[4] بمدينة بطرسبورغ الروسية.

. نصوص مختارة من رحلته.

(اخلاق الروس)

«عادة الروس وأخلاقهم الكرم والإنفاق وحُسن معاشرة الناس، ويميلون إلى الفخر والكبر، وفي القديم كانوا مشهورين بالجبن حتى استعبدتهم التتار حيناً، لكن الآن انعكست القضية، وصار التتار مُذعنين لهم ومن رعاياهم»[5].

---

(1) المصدر السابق ص 30.

(2) المصدر السابق ص 14 -15.

(3) المصدر السابق ص 14.

(4) المصدر السابق ص 16.

(5) تُحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا ص 185.

(رقص النساء مع الرجال)

«رأيت النساء - أيضاً - يلعبن ويرقصن من غير نكير، وهذه عادة تلك البلاد، إلا أن رقصهن بالحشمة مع الرجال، وربما رقص الرجل مع امرأة غيره بحضرته من غير إحساس بغيرة، ويعدون ذلك من الأدب واللطف، وتقضية الزمان بالحظ والمسرة»[1].

(حياه مُرفهة)



روسيا

« الأبنية في غاية الإتقان، يُبنى البيت الكبير بأربع أدوار أو خمسة في أقل زمن، وشواطئ الأنهار والخلجان مرصفة أحسن ترصيف، ولهم في كشف السرقة تفتيش حصيف، ولا تنفع عندهم حيلة السارق الظريف، والنظافة مُراعاة، في الخريف والصيف، بكنس الطُرق وتوصيل ماء المطر إلى البالوعات وإزالة الوحل والقاذورات، وتجديد قطع الخشب والأحجار بالرمل، وفي الشتاء والربيع بكنس الثلج وتنظيف المماشي منه، ورُبما توالى الثلج، فكلما سكن نظفوا وإذا جمد حكوه بالحديد، ثم رشوا عليه الرمل وكنسوه، فدائماً يُمكن التفسح بسهولة»[2].

(التجار والأعيان)

«التجار لا يُعدون في روسيا من الأعيان، فالتاجر ولو ملك ملايين لا يُعد

---

(1) المصدر السابق ص 94.

(2) المصدر السابق ص 159.

من أهل هذه الرتبة، إذا تزوج واحدة من الأعيان حط رُتبتها، وصارت تُعد من التجار، لأن الزوجة تابعة لزوجها في الشرف والخسة، وبنت الأعيان لا تتزوج التاجر إلا بسبب غناه، كما أن أحد الأعيان لا يتزوج التاجرة إلا لغناها، فيختارون التمتع بلذة العيش ولا يُبالون بعقد الكفاءة»[1].

(المرأة تُنسب لزوجها بعد الزواج)

«إذا تزوجت المرأة سُميت باسم عائلة الزوج لا باسم عائلتها، ومن له بنات يُظهرهن في المجالس ويعمل لأجلهن ليالي رقص، عسى أن يُعشقن ويتزوجن»[2].

(مدارس الصم والبكم)

«للصم والبكم الذين يعقلون مدرسة فيها يتعلمون العلوم والتصوير والرقص والألسن، لكن لا يتكلمون إلا بالإشارة، ولكنهم يكتبون كغيرهم ويرقصون كغيرهم، ومن عجيب ما رأيت أني حضرت ليلة رقص عند رجل من الصُم والبُكم، فكان كثير من الراقصين والراقصات منهم، وكان اللاعب على القانون أعمى، فصاروا يتعجبون من كيف يعرف اللعب ولا ينظر، وصار يتعجب منهم كيف يرقصون على الموسيقى وهم لا يسمعونها»[3].



(1) المصدر السابق ص 186.

(2) المصدر السابق ص 198.

(3) المصدر السابق ص 217.

علــي مبــارك

(1823 - 1893 م)



علي سُليمان مبارك ...أديب رحالة و(علم بارز من أعلام النهضة العربية في القرن التاسع عشر، بل إنه واحد من الذين اسهموا في تحديث المجتمع المصري الغارق في عصور التخلف والظلام. وهو يقف إلى جانب أعلام بارزين في ذلك العصر كمثل رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده وغيرهما، ممن كان لهم سهم في تطوير المجتمع المصري، وتالياً المجتمعات العربية - الإسلامية على أُسس عصرية قوامها العلوم والمعارف الحديثة، مع الإصرار على أن يحتفظ الدين بمنصة رفيعة ومرموقة)[1]، و(ولد علي باشا مبارك أحد مُخططي العُمران في مصر عام 1823)[2] في بلدة «برنبال» بمحافظة الدقهلية المصرية ..تلقى تعليمه الأولي على يد والده الشيخ مبارك وفي كُتاب قريته وكتاتيب أُخرى، والتحق بمدرسة قصر العيني، بعدها التحق بالمدرسة التجهيزية للهندسة.

و(اختير مع تلامذة قلائل للالتحاق بكلية هندسية عُليا في بولاق هي «المهندسخانة» التي كانت قد تأسست في أيار من العام 1834)[3].

وبعد خمس سنوات قضاها في هذه الكلية، تم ابتعاثه مع (بعثة علمية إلى باريس أوفدها محمد علي باشا إلى العاصمة الفرنسية عام1844)[4] ...(وفي

(1) علي مبارك المفكر والمعمر، سمير أبو حمدان ص5.

(2) المصدر السابق ص 11.

(3) المصدر السابق ص 30.

(4) المصدر السابق ص 31.

باريس دخل «المدرسة المصرية العسكرية» العام 1844 ، وقضى هناك أربع سنوات، ثم التحق في سنة 1848 بالجيش الفرنسي حيث انهى تدريبه واستكمل العلوم العسكرية والهندسية. وعندما عاد إلى مصر وجد أن الخديوي الجديد عباس الأول يُريد منه تقليص المدراس الحكومية وخفض ميزانيتها. فقام بهذه المهمة كرجل عسكري يُطيع أوامر رؤسائه. ولم يلبث أن ارسله خليفة عباس، الخديوي سعيد، إلى الاستانة لينضم إلى القوات المصرية التي كانت تخوض حرب القرم إلى جانب الدولة العُثمانية. غير أن ارتقاء اسماعيل سدة الخديوية في 1863 ، وهو الذي كان زميل دراسته في باريس، أعاده إلى دائرة الحياة السياسية والإدارية حيث تولى عدداً من المناصب والوزارات، خصوصاً الأوقاف والمعارف. وسافر إلى باريس مرة ثانية في العام 1867 ، وقضى أربعين يوماً لحل مسألة مالية بين اسماعيل وأحد المصارف الفرنسية)[1]..وكانت وفاته سنة 1893.

. وصف رحلته .

إلى جانب كُتبٍ أثيرية أبدعها قلم الرائد الكبير علي مبارك فله كتاب في فن الرحلة أسماه (علم الدين) (وهو عمل موسوعي رتَّبة المؤلف بأسلوب جديد حيث تناول عدداً هائلاً من المواضيع والعلوم والفنون تحت أبواب مُنفصلة دعاها «مسامرات» بلغت مائة وخمساً وعشرين مسامرة. وأدرج المسامرات في إطار روائي حيث يجري الحوار بين شيخ مصري اسمه علم الدين وابنه برهان الدين من جهة ،وبين مستشرق انكليزي من جهةٍ أُخرى. ويقوم هذا المستشرق بعد أن اصطحب معه كلاً من علم الدين وبرهان الدين إلى فرنسا ، بشرح معالم الحضارة الأوروبية. بينما يُساهم الشيخ المصري في ابداء آرائه انطلاقاً من ثقافته العربية واحاطته بالتراث الإسلامي والعلوم القُرآنية)[2]، (ولا يقتصر

---

(1) الرحلة العربية الحديثة ، د/يوسف الشويري ص 71 -72.

(2) المصدر السابق ص 72 -73.

كتاب علي مبارك على تفاصيل الرحلة الباريسية [فقط]، بل يشكل موسوعة ضخمة شملت كل العلوم في الشرق والغرب)[1].

- نصوص مختارة من رحلته -

(الخانات)

«سبحان الله، أرى الإفرنج يعتنون باتقان جميع الأشياء، حتى خاناتهم ووكايلهم لا يتساهلون فيها كتساهلنا في خاناتنا ووكايلنا، فترى المسافر إذا نزل بمكان من خاناتنا ووكايلنا وجد المكان مجرداً من كل شيء، فلا يجد به ما يأكله أو يشربه أو يفرشه أو يستعمله، والويل لمن يمضي عليه بها الليل، لأنه يكون تحت تصرف أنواع الحشرات من البرغوث والقمل والبق والبرغش»[2].

(في مرسيليا)



«لم اسمع أحداً من جميع سُكان هذه البقعة يذكر اسم الله تعالى، بل اراهم في جميع نهارهم لا يتكلمون ولا يشتغلون إلا بأمورهم الدنيوية، وفي الليل لا يأوون إلا إلى محلات الملاهي، ومن الغريب أنهم مع اعتنائهم بنظافة ملابسهم وتزيين ظواهرهم لا يستعمل أحد منهم الماء في إزالة فضلاته ولا يستجمر ولا يغسل يده بعد الأكل»[3].

---

(1) المصدر السابق ص 73. وما بين معكوفين من عندي.

(2) علم الدين، علي مبارك، نقلاً عن المصدر السابق ص75.

(3) المصدر السابق ص 77.

(البورصة الباريسية)

«مكان تجتمع فيه الصيارفة الكبار والسماسرة وعظماء التجار، وهو من ضمن العمارات العظيمة التي تتباهى بها باريز ..ومما يزيد الإنسان تعجباً أنه لا يوجد هُناك غير الكلام، وأما المُبادلة وقبض الدراهم فشيىء نادر»[1].



(1) المصدر السابق ص 78 بتصرف يسير.

فرنسيس مرّاش

(1835 - 1874 م)

فرنسيس بن فتح الله مرّاش الحلبي ...أديب رحالة كاثوليكي[1]، ولد في حلب (سوريا) سنة 1835م. (درس حتى سن العشرين علوماً عربية كالشعر والنحو، ثم «طلب العلوم العالية واللغات». وعندما بلغ الخامسة والعشرين درس على «أحد مهرة أطباء الانكليز ...العلوم الطبية» وتابع دراسته هذه وهو في حلب مُدة أربع سنوات قرر بعدها السفر إلى باريس)[2]، (ليدرس الطب وأقام بها سنتين ثم عاد إلى حلب)[3] وكان نتاج إقامته في باريس كتاب بعنوان (رحلة باريس)، (وهو أقرب إلى الكراس، يصف فيه انطباعاته ويُورد بعض آرائه السياسية والاجتماعية)[4].



..ولفرنسيس (نزعة فلسفية علمانية اجتماعية في كُتبه ومقالاته. ولعله كان السباق في الاطلاع على وتبني أفكار داروين ونظريته في النشوء والارتقاء، وإن لم يُشر إلى ذلك صراحة. وباشر كتاب رحلته الباريسية بمقدمة شبه فلسفية، ..وربما كان من أوائل الكُتاب العرب الذين تبنوا مبادئ الثورة الفرنسية بحماس منقطع النظير ولعله أيضاً أول من ألف رواية سياسية باللغة العربية لشرح هذه المبادىء وتعميمها، وهي «غابة الحق» المنشورة

---

(1) أدب الرحلات، د/حسين محمد فهيم، ص113.

(2) الرحلة العربية الحديثة، ص 52.

(3) أدب الرحلات، ص113.

(4) الرحلة العربية الحديثة، ص 51 -52 بتصرف.

في العام 1866)[1].

. التعريف برحلته.

كانت رحلة فرنسيس مراش إلى باريس في العام 1866م، وظل فيها حتى أواخر العام 1867م، وعاد إلى حلب ونشر كتابه (رحلة باريس) ..و(ترك مسقط راسه [حلب] في 7أيلول(سبتمبر) سنة1866م، متوجهاً إلى الإسكندرونة، ميناء حلب، ممتطياً «ظهر كديش»)[2] وقبل أن يصل إلى يافا، مر باللاذقية، وبيروت، ومن يافا اتجه إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة، ثم عاد إلى الإسكندرية، ومنها اتجه إلى أوروبا قاصداً باريس.

و(لم يكن مرّاش سائحاً أو رحالة مرَّ في باريس مروراً عابراً، فهو ذهب إلى هناك لدراسة الطب فاطلع عن كثب على الحياة الجامعية واحتك بالأساتذة و الطُلاب)[3] كما اطلع على تفاصيل الحياة السياسية في فرنسا وتأثر بأهداف ثورتها الشهيرة، ولم يغفل عن البحث في أسباب رُقيهم وازدهار حضارتهم.

. نصوص مختارة من رحلته.

(بين مرسيليا وليون)[4]

«أي أعينٍ تُشاهد تلك الأرض الممتد فيها ذلك الطريق (سكة الحديد) ولم تلبس حلة الاندهاش والتعجب، وتسكب على القلب سلسبيل الابتهاج والطرب، وتدفع إلى النفس أنوار الأدب والتهذيب، فاتحة أبواب اجمد وأمنع القرائح. فلا يسعني هُنا الشرح عما رأيته من خصب وازدهار هذه الأرض

(1)الرحلة العربية الحديثة، ص 51 -52 بتصرف.

(2) المصدر السابق ص53 بتصرف، وما بين معكوفين زيادة مني للتوضيح.

(3) المصدر السابق ص59.

(4) المصدر السابق ص 54.

السعيدة، وما يلوح عليها من بديع عناية البشر المتمدنة ونتائج سمو أفكارهم، لأن ذلك يحتمل مجلدات كبيرة ..ولكن أقول بأوجز المقال أن جميع تلك المسافات التي كنت أمر عليها، فلوات وجبالاً وهضاباً، كانت بُستاناً واحداً ومدينة واحدة. وما كنت أشاهد لون التُراب الطبيعي سوى بين اسطوانات طريق الحديد حيث تكر العجلات، وما سوى ذلك فجميعه بساتين نضرة، وكروم مخصبة، وغياض أنيقة تتخللها الينابيع والأنهار، ورياض تبتسم بثغور الزهور المتنوعة الأشكال والألوان، تزهو رافلة بحللها السندسية النضرة التي لا تذبل غضاضتها ولا تجف بضاضتها»[1].



مدينة ليون

(باريس)

«وها أنا الآن في مركز مجد العالم واعجوبته، هو ذا تيار البخار قد دفعني الآن في مدينة باريس، مصب أنهار العجائب وموقع أنوار التمدن والآداب. وها قد أخذت عيناي ترى ما كان يراه ذاك الذي خطفته أرواح الآلهة إلى السماء الثالثة ..[وباريس] ذات شوارع رحبة العرض، مستقيمة الطول، حسنة التمهيد والتخطيط، مفروشة على الجانبين بأشجار مستوفية النظام والنسق لكي ترد حرارة الشمس وتأذن لرطوبة النسيم، جامعة كل شروط النظافة والاتقان، فلا يقوم هُناك للجيف الطاعونية انبعاث، ولا للأقذار الوبائية حشرات[2]، بل حدائق رياض وازهار وساحات واسعة الفسحات،

(1) رحلة باريس، فرنسيس مراش، نقلاً من المصدر السابق ص 54 -55.

(2) في كتاب الرحلة العربية الحديثة جآءت هكذا (حشر) وهو خطأ مطبعي.

محكمة الأسلوب»[1].

(لاكسل في باريس)

«ما للكلل هُناك موقع ولا للملل موضع، وما للأفكار تثاؤب على الأفواه أو نوم في أعماق الرؤوس. فهناك الجميع يتسابقون في ميادين التقدم والفلاح ..وهُناك الجميع يجرون إلى الأمام، الجميع يتحركون، الجميع يتسارعون. الجميع يشتغلون، الجميع متعاضدون سوية ومنضمون إلى قوة واحدة للركض إلى اقتحام كل المصاعب والوصول إلى قمة الكمال والجمال، عالمين أن الهجوم إلى الأمام يُورث مُفخرة، والحركة نمواً، والتسارع اعتباراً، والشغل ثروة وغناء (غنى)، والانضمام قوةً وسطوةً، والوصول إلى ذلك شرفاً واقتداراً. وإن التهاون يلد تأخراً، والسكون قهقرةً، والبطء احتقاراً، والبطالة فقراً وفاقةً،والانفصام ضعفاً وانحطاطاً. والأمة الفرنساوية تتموج على بعضها كقطعة واحدة بدون نزاع جزئياتها ولا انقسام في كلياتها، سابحة في بحور الأمن والسلام بدون خوف من واثبٍ أجنبي،أو حسودٍ غادر ..رافلة بأذيال الحرية الكاملة بدون خشية من التعثر بأشواك سيادة بربرية أو سُلطة ضارية»[2].

(اهمية اللغة عند الفرنسيين)

«الفرنسيون يُتقنون لغتهم نُطقاً وكتابة، وعلى كل منهم أن يعلم قواعد لغته، ويفهم أصولها، والذي يجهل ذلك يعتبر عندهم كالحيوان العديم النُطق لعدم معرفته صحة النُطق، لأنه متى زاغ النُطق زاغت الأفكار لوجود علاقة الدلالة بينهما ـ على أنه متى زاغ الدليل زاغ المدلول ـ فلا جرم إذاً أن يُعتبر زائغ الفكر بهيمة لكون زيغان الأفكار دواماً يستلزم زيغان الإنسانية»[3].



(1) المصدر السابق ص 56بتصرف وما بين معكوفين من عندي للتوضيح.

(2) المصدر السابق ص 57 -58 بتصرف.

(3) المصدر السابق ص59.

سليم بسترس

(1839 - 1883م)

سليم بسترس .. أديب رحاله، ولد في مدينة بيروت سنة 1839م، ونشأ في (عائلة مسيحية ارثوذكسية ذات نشاط تجاري معروف برز فيها عدد من رجال المال والأعمال)[1] ..وكانت وفاته سنة 1883م.

. التعريف برحلته.

(لعل سليم بسترس من الرحالة العرب القلائل الذين توجهوا إلى أوروبا نتيجة دافعٍ شخصي بحت، وليس نتيجة بعثة ديبلوماسية أو علمية ..وقرر بعد القيام برحلته الأوروبية الاستقرار نهائياً في لندن حيث أنشأ هناك محلاً تجارياً. ولا يزال الغموض يكتنف بعض مراحل حياته، خصوصاً لجهة الأسباب الكامنة وراء رحلته)[2] وكشف الرحالة سليم بسترس جزءاً من هذا الغموض حين يقول: (إنني بينما كنت مُشتاقاً إلى السياحة في البلاد الإفرنجية وما يليها من الأطراف لمشاهدة تلك الديار المملوءة من التهذيب والنظام، دعاني إلى المُبادرة في ذلك قصد تبديل الهواء لأجل تمكين صحتي التي كانت بحمدالله قد رجعت بعناية الطبيب الشهير إبراهيم أفندي سرهزار)[3] فـ(الرحلة إذاً كانت في سبيل الاستشفاء والنقاهة، من جهة، وبناء على رغبة سابقة للاطلاع مباشرة على بلاد تتصف حياتها بـ«التهذيب والنظام»)[4].

(وشاهد سليم بسترس كل ما وطّن نفسه على مشاهدته، فتحقق لديه أن أوروبا من جهةٍ أخرى هي فعلاً وجود مطابق للصورة الذهنية التي كونها عنها

---

(1) الرحلة العربية الحديثة من اوروبا إلى الولايات المتحدة، د/يوسف الشويري ص39.

(2) المصدر السابق ص 39 بتصرف.

(3) النزهة الشهية في الرحلة السليمية، سليم بسترس، نقلاً عن المصدر السابق ص 40.

(4) الرحلة العربية الحديثة ص 40.

وهو لم يزل في بيروت)[1].

..وترك الرحالة بسترس كتاباً في الرحلة أسماه (النُزهة الشهية في الرحلة السليمية) وابتدأ مسار رحلته من بيروت إلى حيفا ومنها إلى الاسكندرية (وزار القاهرة زيارة خاطفة، وعاد إلى الاسكندرية ومنها إلى مالطا فإيطاليا)[2] ومنها توجه إلى فرنسا .. وزار أيضاً بلجيكا والنمسا وبريطانيا وبروسية.

. نصوص مختارة من رحلته .

(في مرسيليا)

«ولما فرغنا من الفُرجة على ممالك إيطاليا توجهنا إلى فرنسا، فدخلنا مرسيليا وتفرجنا بها على معصرة للزيت تدور على آلات بُخارية تعصر الزيت من السمسم وبزر الكتان وتُصفيه. وعلى كرخانة للسكر تعصر الشمندور وتغليه في حلل كبيرة، وتقصره على بخار العظام المغلية ليأخذ لون البياض المُشرق ثم تُصفيه وتسكبه في قوالب من النحاس. وعلى كرخانة أخرى للطرابيش فيها أنوال كثيرة تحيك نسائج من اللباد الأبيض السميك، ثم تُركبه على قوالب مختلفة فيكون طرابيش تامة لا تحتاج إلاّ الصباغ»[3].

(باريس)

«توجهنا إلى باريس فوجدناها جنة الدُنيا وسلوة الغريب عن وطنه، لأننا أقمنا بها تسعة وعشرين يوماً، وكنا نقضي النهار وأكثر الليل بالتجوال والتنزه والفُرجة على مناظرها الجميلة،وكان كل ذلك كأنه يوم واحد .. وبالحقيقة أن اللسان يعجز عن تفصيل ما في هذه المدينة من الترتيب والنظام، إن كان من جهة اسواقها أو ابنيتها أو منزهاتها، أو طُرقها أو بساتينها أو

---

(1) المصدر السابق ص 40.

(2) المصدر السابق ص 41.

(3) المصدر السابق ص 41.

نظام عيشتها الرغيدة. فنقول بالاختصار أنها تحتوي على ألوف من الشوارع والأزقة الواسعة. وبيوتها وحوانيتها كلها مدهونة بالألوان المختلفة. وعلى كل جانب من الشوارع مسطبة مبلطة (أي رصيف) تمر المشاة عليها. وفي الوسط بُقعة فسيحة غير مبلطة لأجل مرور الكروسات (أي عربات الخيل) فترى ألوف ألوف من الناس يمرون بكل احتشام على تلك المساطب. وألوف ألوف من الكروسات تراها مقطورة، منها على أربعة أفراس، ومنها على اثنين، ومنها على فرس واحد، متتابعة بركض سريع. والذاهبة منها تمر على الناحية اليُمنى والقادمة على اليُسرى. وإذا خالف أحد هذا الترتيب أو ازعج أحداً في طريقه أو حدثت منه أذية لأحد يقع تحت القصاص»[1].

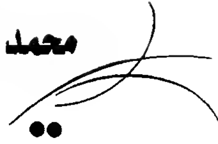
(اهالي لندن)

«يتصفون بحسن التديُن وعندهم محبة وثبات في العلوم والصنائع أكثر من كل أهل الدنيا .. وأهلها لا يزالون مزدحمين في الأسواق منعكفين على أعمالهم لا يلتهون عنها بالتنزه والخروج إلى الجنائن والبساتين. وهم يُحبون الإحسان إلى الفقراء فيعطون كل سنة نحو ثلاثة ملايين ونصف من الليرات، عدا جمعية الصدقة التي تُعطي سنوياً نحو ستة آلاف ليراً»[2].



(1) النزهة الشهية في الرحلة السليمية، سليم بسترس، نقلاً عن المصدر السابق ص 42 -43 بتصرف.

(2) المصدر السابق ص 47 -48 بتصرف.



محمد بيرم التونسي



(1840 - 1889 م)

محمد بيرم الخامس التونسي .. أديب، رحالة، مُصلح اجتماعي، ورجل (دولة ودين)[1].. (ينحدر من عائلة تولت القضاء ومشيخة الإسلام، أما هو فتولى رئاسة جمعية الأوقاف، وأيّد الإصلاحات والتنظيمات التي شرع بها صديقه خير الدين التونسي خصوصاً بعد 1873. وسافر محمد بيرم إلى أوروبا أكثر من مرة، إما بهدف التداوي، كما يقول، أو نتيجة مهمة ديبلوماسية، واستقر في اسطنبول قبل احتلال فرنسا لبلاده بقليل، وحظي برعاية السلطان عبدالحميد المالية والسياسية، ثم غادر العاصمة العثمانية وحلَّ في الديار المصرية حيث بدأ بنشر كتابه «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» ثم اكمل نشره ابنه بعد وفاته، وهو يتكون من خمسة أجزاء)[2] وبعد أن استقر (في مصر سنة 1884م أصدر جريدة «الاعلام»، وتولى خطة القضاء في محكمة مصر الابتدائية الأهلية)[3] وكانت وفاته سنة 1889.

. وصف رحلته .

قام الرحالة محمد بيرم الخامس التونسي (بثلاث رحلات إلى أوروبا بين 1875و 1879 وكتابه «صفوة الاعتبار» يُمثل ثمرة هذه الرحلات مجتمعة وهو يتحدث كفقيه ورجل إصلاح، فتجده يتمسك بأهداب الدين الإسلامي من جهة، ويدعو إلى تدارك تدهور العالم العربي والإسلامي من جهةٍ أخرى)[4].

وأصدر بيرم التونسي كتاباً في الرحلة في خمسة أجزاء أسماه «صفوة

---

(1) الرحلة العربية الحديثة من اوروبا إلى الولايات المتحدة، د/يوسف الشويري ص 82.

(2) المصدر السابق ص 82. بتصرف يسير.

(3) المصدر السابق ص 90.

(4) المصدر السابق ص 83.

الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» وهذا الكتاب (يُمثل قمة أدب الرحلات العربية إلى أوروبا في القرن التاسع عشر. فهو يمتاز عن سواه بدقة تقسيم المواضيع وشمولية السرد والحديث عن مُعظم الأقطار الأوروبية، إضافة إلى تركيزه على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في تونس ومصر والدولة العثمانية)[1] و(نشر بيرم «صفوة الاعتبار» بعد أن كانت فرنسا استكملت احتلال الجزائر - أي ما بين 1830و1847 وهو عام إلقاء القبض على الزعيم الجزائري الأمير عبدالقادر ونفيه إلى الخارج، وقضت بريطانيا على حركة أحمد عرابي في مصر - في العام 1882 -، ودخلت بلاده تونس تحت الحماية الفرنسية، ولذلك نراه يربط دائماً بين الأوضاع الداخلية والسياسة الخارجية للدول الأوروبية)[2].

- نصوص مُختارة من رحلته -

(سُكان ريف إيطاليا)



«ليس من عادتهم الحياء، مثل ما هو عندنا، فترى البنت تُخاطب زوجها وتُفاكهه أمام والديها، بل وتفعل ذلك مع خطيبها، وترقص مع الرجال أمامهم. هذا في البنات فكيف بالبنين. وعندهم أن الغناء ليس بمعيب من النساء، فترى أكبر الأعيان يحتفل في داره بدعوة عامة، وتصير بنته أو زوجته أو إحدى النسوة الأعيان المدعوات تُغني في ذلك

---

(1) المصدر السابق ص82 - 83.

(2) المصدر السابق ص 85 مع هامش رقم 2و3 من نفس الصفحة.

الملأ، وترقص مع الرجال على أشكال شتى من معانقة ومخاصرة وغيرها، ولا تأثيم في ذلك بل يرونه إكراماً بحيث أن المسلم الغيور يكاد يتفطر مما يرى»[1].

(وما أدراك ما باريس)

«باريس وما أدراك ما باريس هي نُزهة الدنيا وبُستان العالم الأرضي واعجوبة الزمان .وهي نموذج لغرائب مصنوعات البشر، وحُق للفرنساويين التفاخر بها ومباهاة الأمم بمحاسنها وجمالها ومعارفها ومصانعها»[2].

(الإنكليز والتبشير)

« ومما اختصت به انكلترا وجود جمعية دينية[3] لنشر مذهبهم البرتيستانتي، وانفاق النفقات الباهظة على إرسال الرُسل لتنصير الناس في أقسام الأرض وحماية دولتهم وراءهم، فيغرون الناس بالمال وبالمباحثات الدينية وبفتح المدارس لتعليم العلوم ودرس العقائد فيها. وقد بذلوا مستطاعهم في الهند لتبديل عقائد أهله وحصلت مع المسلمين مباحثات شهيرة وكان الانتصار فيها ولله الحمدُ للمسلمين، حتى أنه أسلم بسببها كثير من المجوس، بل في هاته المدة أسلم أربعة قسوس من الذين تصدوا للنزاع والجدل بسبب صدق الديانة الإسلامية ورسوخ العُلماء هُناك وتبحرهم في العلوم»[4].

(بضائع الإنكليز لا تبور)

«لن تبور لهم بضائع ولا تُقفل لهم معامل، فما يُنتجه ثلاثون مليوناً من

---

(1) صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، محمد بيرم التونسي، نقلاً عن الرحلة العربية الحديثة ص 88.

(2) المصدر السابق ص 83.

(3) في كتاب الرحلة العربية الحديثة جاءت هكذا (ديانيه).

(4) المصدر السابق ص 87.

الانكليز من الصنائع يكونون مطمئنين على رواجه في مستعمراتهم كُل على قدر احتياجاتها، زيادة عن الممالك الأجنبية، وكفى بذلك غنى للأمة الانكليزية. وأي فائدة أعظم لها من ذلك»[1].

(أهالي الشمال الإيطالي)

«تقدمت فيهم الحضارة أكثر من أهل الجنوب، إذ أهل الجنوب والوسط لا زال فيهم أُناس على سذاجة تقرب من التوحش، وكلهم على الديانة النصرانية على المذهب الكاثوليكي، إلاّ خمسة وثلاثين ألفاً منهم على المذهب البرتيستنت، وثلاثة وعشرون ألفاً من اليهود، ومن الأهالي ستون ألفاً من جنس الأرناؤوط»[2].



(1) المصدر السابق ص 86.

(2) المصدر السابق ص 88.

صادق باشا العظم



(00 - 1911 مـ)

صادق باشا المؤيد العظم ..رحالة سوري شهير ومن رجالات القرن التاسع عشر الميلادي، ولد في دمشق وبها نشأ وتلقى تعليمه الأولي، وفي بيروت واصل الدراسة، وأتم دراسته العُليا في الآستانة وبرلين (وتخرج من كلياتها الحربية)[1] ...(وكان قائداً عسكرياً كبيراً في الجيش العثماني (فريق أول)، ومندوب الدولة العلية في بلغاريا، واضطلع بمهمات عديدة على الأصعدة العسكرية والدبلوماسية، منها الإشراف على مدّ الأسلاك البرقية من دمشق إلى الحجاز)[2]، وفي أواخر أيامه لزم دمشق وفيها توفي ودفن سنة 1911م.

. وصف رحلته .

زار صادق باشا العظم أوروبا، وارتحل إلى الحبشة ودون رحلته إليها في كتاب بعنوان: (رحلة الحبشة من الآستانة إلى أديس بابا سنة 1896م) وارتحل كذلك إلى صحراء أفريقيا الكبرى، وجمع نصوص رحلته إلى هذه الصحراء في كتاب.

..يقول الكاتب نوري الجراح: (بدأ صادق باشا رحلته [إلى الحبشة][3] في 15إبريل/نيسان سنة 1896م، منطلقاً من ميناء اسطنبول على ظهر باخرة فرنسية متجهة إلى مرسيليا، ورجع إلى الآستانة على ظهر باخرة روسية يوم 16يوليو/ تموز من العام نفسه، وبذلك تكون رحلته إلى الحبشة استمرت ثلاثة أشهر ..دون الكاتب وقائع رحلته وما حفلت به من أحداث ومشاهدات يوماً بيوم، وبالتالي فهي تُشبه في ترتيبها المذكرات اليومية، ولم يُهمل

---

(1) مقدمة رحلة الحبشة لنوري الجراح ص 11.

(2) مقدمة رحلة الحبشة لنوري الجراح ص11.

(3) ما بين معكوفين من عندي للتوضيح.

الكاتب يوماً ولم يدون فيه ما شاهده وسمعه وقرأه ووقع له، حتى ليُخيل إلينا أن الكاتب لا هم له أكبر من تدوين الرحلة، والواقع أن صادق باشا العظم يُفصح هنا عن كاتب رحلة محترف، ورحلته هذه تضعه في مصاف كبار كتابها العرب والأجانب، لما يتميز به من دقة في التعبير، وأمانة في النقل، ورهافة في وصف المشاهد، وذكاء في قراءة الظواهر، وبساطة في اللغة، وطلاوة في العبارة، وطرافة في التعليق .وتُصنف هذه الرحلة في عداد الرحلات الدبلوماسية)[1].

. نصوص مُختارة من رحلته إلى الحبشة.

(الملح مع القهوة)

«كُنت أجد من يوم ورودي إلى أديس بابا طعم ملح في القهوة إن كانت بسكر أو من غير سكر وما كنت أعلم سبب ذلك، وعلمت اليوم أنهم يضعون الملح في القهوة زيادة في إكرام الضيف لأن ثمن الملح هُنا غالٍ جداً، وقد حدث اليوم أن طاهي القهوة وضع في قهوتنا ملحاً ثم أتى أجيره فوضع هو أيضاً مقداراً من الملح فيها ظناً منه أن كبيره لم يضع فيها [ملحاً][2] فلم نقدر أن نشربها، ولمّا علمت ذلك منعت الخدم المكلفين بعمل القهوة من وضع الملح في القهوة وقد اندهش الخدم من هذا التنبيه وأخذوا يعتذرون مظهرين لنا لزوم وضع الملح ومُصرين على وضع الملح في القهوة حتى لا يحطوا بكرامتنا على زعمهم ولم نقدر على منعهم إلا بواسطة صاحب المنزل الذي عرفته بأننا لم نتعود في بلادنا وضع الملح في القهوة»[3].

(أنواع العقوبات)

«إن العقوبات في بلاد الحبشة تُرتب كما ترتب في البلاد الأخرى حسب

---

(1) المصدر السابق بتصرف ص 11 -12.

(2) ما بين معكوفين من عندي للتوضيح.

(3) رحلة الحبشة من الآستانة إلى أديس بابا ص 187 -188بزيادة يسيرة.

الجناية والجُنحة والمخالفة وإنما عقوباتهم شديدة كشدة طعم الفلفل الأحمر عندهم، فالمخالفات عقوبتها بالسوط فيربطون يدي ورجلي المحكوم عليه بسيور من الجلد أو بالحبال ويُكب على وجهه ثم يأتي أربعة من الرجال ويشد كل واحد منهم الحبل أو السير شداً متيناً حتى يُخيل للناظر أن أعضاء المحكوم عليه سينفصل بعضها عن بعض ويعلو جسمه عن الأرض من شد الحبال وبعد ذلك يأخذ الجلاد بجلده بسوط طويل على أفخاذه وظهره وسائر جسمه العاري عن اللباس. وعقوبة السرقات قطع الأيدي والأرجل ويأتي أقرباء المحكوم عليه أو من يُحب أن يعمل عمل خير بقليل من الزيت ويغلونها على النار أو يُحمون حديدة لدرجة الاحمرار قبل تنفيذ الحُكم فعند قطع اليد أو الرجل يضعون محل الجرح في الزيت المغلي أو يكوونه بالحديدة الحامية لأنه إذا لم يُعمل ذلك ويترك الجرح كما هو يموت من كثرة نزيف الدم من الجُرح وأكثر المحكوم عليهم يموتون بعد التنفيذ. أما القتل فعقوبته القتل إذا لم يرضَ ورثة المقتول بالدية فيُسلم القاتل إما إلى الجلاد مُباشرة وإما إلى الورثة، فإذا سُلم إلى الورثة يقتلونه بمثل ما قتل أي إذا كان قد قتل بالرصاص يقتلونه بالرصاص وإن كان قتل بالسيف فبالسيف، وكثيراً ما يتجاوز الورثة في تنفيذ هذه الأحكام حدود الإنسانية فيمثلون به تمثيلاً شنيعاً ويعذبونه»[1].

(حنان الحبشيات)

«مر بضع نسوة فاستوقفت نظري مخلاة معلقة على ظهر إحداهن وفيها طفل صغير فعلمت أن النساء الحبشيات يحملن صغارهن على ظهورهن ضمن مخلاة ولا يُفارقنهم قط في ذهابهن وإيابهن وقيامهن وجلوسهن. وعلى هذا المنوال ينمو الطفل على جسم والدته كما ينمو الغصن الصغير على الشجرة. والناظر لا يرى من الطفل سوى الرأس الذي لا تؤثر الشمس عليه قط مع أنّ الأبيض لا يقدر على الوقوف في الشمس خمس دقائق من غير مظلة، لأن

---

(1) المصدر السابق ص 163.

شمس هذه البلاد مؤثرة جداً فإذا أصابت الإنسان بضربةٍ منها يلتهب الدماغ ويقضى على المصاب في الحال، وإذا بكى الطفل أثناء سير الأُم فإنها تسحب المخلاة إما على اليمين أو على الشمال وتُرضعه وهو في كيسه وبعد الفراغ من إرضاعه تنتفض فتذهب المخلاة إلى محلها القديم على ظهر المرأة»[1].



---

(1) المصدر السابق ص 99.

جرجي زيدان

(1861 - 1914 م)

جرجي بن حبيب زيدان ..روائي شهير، كاتب صحافي مُتميز، رحالة ..ولد في بيروت سنة 1861م وبها نشأ (وتعلم القراءة والكتابة ومبادئ النحو والحساب، ولم يُكمل تعليمه، بسبب اضطراره للعمل إلى جانب والده، حيث انقطع عن الدراسة لمدة تزيد على سبع سنوات، لكن حنينه إلى المدرسة وتعلقه بالكُتب دفعاه إلى متابعة التعلم الذاتي، فأخذ في تعلم اللغة الإنكليزية، وقراءة العديد من الكُتب في الشعر والأدب والعلوم والرياضيات والكيمياء والفزيولوجيا وغيرها، مما أهله لدخول كلية الطب في الجامعة الأمريكية ببيروت، فأحرز تفوقاً في السنة الأولى)[1]



بعدها اضطرته مجموعة من الظروف للسفر لمصر وترك لبنان، وفي مصر نمت أفكاره وأزهرت رياحين اطروحاته واشتهر أمره وذاع، وعُد في العالم العربي من رُواد نهضته الأدبية والفكرية .وتُوفي سنة 1914م.

.وصف رحلته.

إلى جانب كُتبه الأثيرة[2]، لجرجي زيدان كتاب في أدب الرحلات، قص فيه رحلته إلى أوروبا التي قام بها سنة 1912م. وعن هذه الرحلة يُحدثنا الباحث قاسم وهب فيقول: (لم تكن رحلة جرجي زيدان إلى أوروبا سنة

---

(1) مقدمة رحلة جرجي زيدان، قاسم وهب ص11 بزيادة يسيرة.

(2) وهو مؤسس مجلة الهلال الشهيرة.

1912م رحلة استجمام واستمتاع بقدر ما كانت رحلة علمية مبرمجة، تجشم القيام بها في آخر العمر ليكتب وصفاً مُفصلاً ودقيقاً عن أحوال المدنية الغربية ممثلة بكلٍ من فرنسا وإنكلترا اللتين تُجسدان خلاصة هذه المدنية في جانبيها المادي والمعنوي، في الوقت الذي كانت تتطلع فيه عيون الشرقيين إلى الخروج من ربقة التخلف، والسير في ركاب الأُمم المُتمدنة)[1].

- نصان مُختاران من رحلته -

(اخلاق الإنكليز)

«ومن الأخلاق المشهورة عن الإنكليز أنهم متكبرون يترفعون عن مخالطة سواهم من الأُمم. وهي تُهمة لا تخلو من الحقيقة. إن الإنكليزي معجب بنفسه، يفتخر بدولته وأمته، وينفرد عن سائر الأُمم فلا يُزاوجهم أو يختلط بهم إلاّ بما تقتضيه المصلحة التجارية أو السياسية. ولا عجب فإننا في عصر الانجلوسكسون كما كان العرب في إبان دولتهم والرومان قبلهم. ولكل أُمة عصر إذا تفوقت فيه على سواها توهّمت امتيازها الفطري عليهم بالجِبلة الأصلية وهي طبعاً لا تنال ذلك التفوق إلا لمواهب تمتاز بها عن سواها. وممّا يوجه إلى الإنكليز من الانتقاد أنهم أنانيون يُحبون الاستئثار بالمنافع لأنفسهم، وهو خُلق فطري في الإنسان لا يختص بأُمةٍ دون أُخرى. لكنه يظهر في الإنكليزي، لأنه لا يُبالي أن يُظهره ويتمسك به ولا يهمه ما يُسميه الآخرون أريحية أو نجدة ويعدونها من أسمى المناقب، فهو لا يُعرض نفسه للخسارة لمنفعة سواه كما يفعل الفرنساويون مثلاً، أو كما يفعل العرب ويعدونه من مفاخرهم ولذلك كان العرب أسرع اختلاطاً بالفرنساويين. ومن مقتضيات الجنوح إلى الحقائق أن الإنكليزي صريح في أقواله وأعماله، لا يقول غير ما يعتقده ولو ساءك قوله. فيظهر ذلك منه مظهر الجفاء. ولكنه يعد المجاملة ضرباً من العبث، فلا يزال يتجنبك حتى يتعرفك، ويثق بك فيمد لك يده، ويُصافحك، ويكون عند ذلك من أخلص الأصدقاء وأظرف الجلساء»[2].

---

(1) المصدر السابق ص 13 -14.

(2) رحلة إلى أوروبا، جرجي زيدان ص 98 -99.

(طبائع الفرنساويين)[1]

«الفرنساوي عامل نشيط يدأب على العمل بحماسة وهمة، ولا سيما أهل الزراعة منهم فإنهم قويوّا الأبدان يعملون في حقولهم بنشاط، ولا تجد في فرنسا بُقعة تقبل الزراعة غير مزروعة، وكذلك العُمال والصُناع، وسائر طبقات الناس، فإنهم نشيطون في ذهابهم وإيابهم في كلامهم وأشغالهم وفي أسفارهم فإن أحدهم ينزل من القطار ويحمل حقيبته (الشنطة) بيده فإذا كان منزله قريباً سار إلى بيته ماشياً لا يرون في ذلك بأساً، على أنهم إذا طلبوا غُلاماً أو رجلاً يحمل لهم الحقيبة في أثناء الطريق لا يجدون، وهي صفة يشترك فيها أهل أوروبا كافة، ويتأثر بها الشرقي حالما يطأ تلك القارة. وتقوم في نفسه رغبة في الهمة والنشاط فإذا رجع إلى بلده عاد إلى طبعه، إلاّ إذا توطن أوروبا طفلاً، ومرجع ذلك إلى طبيعة الإقليم. والفرنساوي ذكي الفؤاد، سريع الخاطر، حاضر الذهن، فصيح، خفيف الروح، فيه ميل إلى الفنون الجميلة وذوق في الصناعة. وللفرنساويين ذوق في الجمال لا تُضارعهم فيه أُمة، يظهر ذلك خصوصاً في الباريسيين فإنهم قدوة الأمم في الأزياء على اختلاف أشكالها، ولهم ذوق في توليد الجمال مما لا جمال فيه من نفسه بترتيب أجزائه على شكل لا قاعدة له إلاّ الذوق، وهو على أرقى درجاته في باريس، تجد المرأة القبيحة الخِلقة تتزيا بزي يُناسبها، وتصفف شعرها تصفيفةً تُناسب ملامح وجهها فتظهر جميلة ..والفلاح الفرنساوي بسيط في لباسه وأخلاقه، ومهما يكن من فقره فإنك تجده نظيف الثوب، نظيف الفراش، يأكل على المائدة بالشوكة والسكينة بترتيب ونظافة، فلا تستنكف إذا دخلت بيته من أن تجلس على مقعده، تأكل من طعامه، وتشرب من كأسه»[2].



(1) العنوان لجرجي زيدان.

(2) المصدر السابق بتصرف وزيادة يسيرة ص 37 -39.

محمد رشيد رضا

(1865 - 1935 م)

محمد رشيد رضا ..علامة، أديب، رحالة ..من مشاهير عُلماء الإسلام في بدايات القرن العشرين، وعَدهُ الباحثون من رواد النهضة الأوائل أمثال الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني وعبدالرحمن الكواكبي ...له مؤلفات في غايةٍ من النفاسة والروعة تتضح بالفكر العبقري والتنويري، وهو صاحب مجلة (المنار) الشهيرة ..ولد سنة 1865م في قرية القلمون (لبنان) وكانت وفاته سنة 1935م بمصر ودُفن بها.



. وصف رحلته.

للشيخ محمد رشيد رضا رحلتان شهيرتان إلى (سوريه) حيث قام بالأولى (سنة 1908م بعد إعلان الدستور العُثماني والثانية سنة 1919م بداية الانتداب الفرنسي)[1]، وله رحلات أُخرى أثبتها في مجلة (المنار) وقد اكتسبت رحلتاه هاتان أهمية خاصة عند المهتمين بأدب الرحلات، وذلك لأنهما رصدتا (التحولات الكُبرى التي عصفت بالمنطقة خلال الحرب العالمية الأولى وسقوط الإمبراطورية العثمانية وتفككها)[2] و(المكانة العلمية السامية التي اتسم بها هذا العالم الأديب تزيد من أهمية هاتين الرحلتين. فهو يُعد من كبار أئمة المسلمين والمصلحين الاجتماعيين في النصف الأول من القرن العشرين كسلفه المُفكر الرائد عبدالرحمن الكواكبي. وقُدر لرشيد رضا في رحلته الأولى أن

---

(1) عن نص كلمة كُتبت على غلاف كتاب رحلته الذي نشرته دار السويدي بالتعاون مع المؤسسة العربية للدراسات والنشر تحرير وتقديم/ زهير أحمد ظاظا، ط1/2001م.

(2) المصدر السابق.

يشهد الآثار التي تركها إعلان الدستور العُثماني على الحياة السورية، وفي رحلته الثانية أن يكون المؤرخ اليومي لوقائع دخول الجنرال غورو دمشق وإقصاء فيصل عنها وما جرى من أحداث وردت مُفصلة في رحلته، وكان الشيخ يومذاك يتصرف كمسؤولٍ أول عن بلاد الشام، ويقترح على فيصل تعيين الوزراء وفي أحلك الظروف يقصده المسؤولون للإستشارة. وعاش مثالاً في الجرأة والصراحة، فحين اختلف فيصل مع أعضاء المؤتمر السوري، قال الأمير: أنا الذي أوجدته - يقصد المؤتمر - فرّد عليه رشيد رضا قائلاً: بل هو الذي أوجدك فقد كُنت قائداً من قواد الحُلفاء تحت قيادة الجنرال اللنبي، فجعلك المؤتمر ملكاً لسورية)[1].

- نصان مختاران من رحلته.

(معاهدة سايكس بيكو)

«اتفق أن أعلن كل من دولتي إنكلتره وفرنسه عقب وصولي إلى الشام أنهما اتفقتا نهائياً على تنفيذ معاهدة (سايكس بيكو) المعروفة بمعاهدة سنة 1916م وأن إنكلتره ستخرج جنودها من المنطقتين الشرقية والغربية من سوريه، وتترك الأولى للجيش العربي الحجازي والثانية للجيش الفرنسي، وما كان حملها للأمير فيصل على السفر إلى أوروبة في هذه المرة إلا تمهيداً لهذا العمل. وكان أهل سوريه عامة يظنون قبل هذا الإعلان أن الدولتين الحليفتين قد عدلتا عن تنفيذ تلك المعاهدة، لما رأوه من التنازع بين رجالهما في النفوذ أيام وجود اللجنة الأمريكية في سورية وسعي كل منهما في كل منطقة من المناطق الثلاث لكسب أصوات الأهالي في طلب انتدابهم لمساعدة البلاد أي لاستعمارها بهذا الاسم الجديد الذي وضع في قاموس السياسة بعد العلم بنفور الناس كافة من الأسماء الأُخرى التي ابتذلت وزال انخداع الناس بها كلفظ

(1) المصدر السابق.

الحماية والاحتلال الموقت، فلما أعلنت الدولتان اتفاقهما كبر وقع وعظم صدعه في قلوب الجماهير الذين خُدعوا بذلك التنازع، وظنوا أن إنكلتره تُفضل العرب على فرنسة، فكان كل من زارني منهم يسألني عن رأيي في هذا الحدث الجديد في السياسة الإنكليزية فكنت أقول: إنكم ترونه جديداً وأراه غير جديد، إن السياسة الإنكليزية ثابتة وما كان لعاقلٍ أن يظن أن تُفضل العرب على فرنسة، وإنما عرض لفرنسة أمل جديد أحدثه إجماع السوريين في بلادهم وفي مهاجرهم كلها على وحدة سورية وعدم تقسيمها إلى ثلاث مناطق مختلفة الإدارة والسلطة فحسبت أنه يُمكنها جعل هذا وسيلة لإعطائهم سورية كلها»[1].

(مخمصة الحرب وسوء اثرها)[2]

«لم أسمع من أهل دمشق من أخبار الجوع والعري إبان مخمصة الحرب إلا قليلاً من كثير ما سمعت من أهل لبنان والساحل، فدمشق كجزيرة في بحر عظيم من الجنات والبساتين، وأجنادها ورساتيقها ذات خصبٍ عظيم، ولم يكن للترك من السُلطات على اهراء غلالها في حوران وجبل الدروز ما كان لهم على غلال لواء طرابلس وحمص وحماه، بل كانوا يشترون القمح من الدروز بالثمن الغالي ويدفعون ثمنه من الذهب الأحمر لا من ورق النقد الذي ما كان يروج إلا بثلث قيمته، أو ربعها، فلهذا لم يكن شد خناق المجاعة على أهل دمشق محكماً كخناق لبنان وبيروت وسائر السواحل، لذلك كان أكثر من مات فيها جوعاً من الذين هاجروا إليها لا من أهلها، على أن الكثير منهم قد باعوا أثاث بيوتهم وجميع ما يملكون وبذلوه في ثمن القوت. وأما ما جرى في السواحل وجنوب لبنان ولا سيما قضائي المتن وكسروان منه فهو فوق ما كانت تشرحه الجرائد في مصر ويظنه أكثر أهلها من المبالغات

---

(1) رحلتان إلى سورية، محمد رشيد رضا ص 80.

(2) العنوان من المصدر السابق ص 81.

التي يُقصد بها الطعن في الترك، فالحق أن كل ما وصفته كان دون الذي وقع، وقد ثبت عندي أن بعض الناس كانوا يأكلون كل ما يجدونه في المزابل والطُرق رطباً يُمضغ أو يابساً يُكسر، وثبت عندي أكل الناس الجيف حتى ما قيل من أكل بعض النساء لحوم أولادهن والعياذ بالله تعالى. وأخبرني كثيرون في بيروت وطرابلس أن الناس كانوا يرون الموتى في الشوارع والأسواق والمُشرفين على الموت من شدة الجوع ولا يبالون لهم ولا يرثون لأنين المستغيثين بهم، فقد قست القلوب وكزت الأيدي حتى من الذين كانت تتضاعف ثروتهم من الاحتكار الذي ضاعف البلاء وعظم به الشقاء، فقد كان هؤلاء وغيرهم من الموسرين تستطاب لهم الألوان المتعددة، وكانوا يُقيمون المآدب للولاة وقواد الجيش الذي صبوا كل هذا العذاب على الأُمة والبلاد حتى الطاغوت جمال باشا. وأما حفاوتهم بأنور باشا ومن زار البلاد السورية معه فلم يُسبق لها نظير في أيام الرخاء. وكان الحكام ورؤساء البلديات يهتمون بنقل جثث الموتى والمشرفين على الموت من الطرقات التي يمر فيها أنور باشا أو جمال باشا أو والي بيروت لئلا يتألم شعوره الحجري برؤية ذلك وأنى تتألم الصخور؟»[1].



(1) المصدر السابق ص 81 -82.

شكيب أرسلان

(1869 - 1946 م)

شكيب أرسلان، أمير البيان. علامة، مؤرخ، أديب، رحالة .ورائد من رواد النهضة في العالم العربي. ولد في بلدة الشويفات (لبنان) سنة 1869م ...



و(بدأ التحصيل العلمي بالدرس على أيدي معلمين خصوصيين، وبقي على هذه الحال حتى بلغ العاشرة من عُمره. ثم هبط من بلدته الشويفات إلى بيروت، فدخل مدرسة الحكمة حيث بقي طالباً فيها نحو سبع سنوات تلقّن في أثنائها أصول العربية والفرنسية. وانتقل بعد ذلك إلى المدرسة السلطانية فتعلّم التركية وبعض العلوم الدينية وغيرها. ولما أتم تحصيله تولى بعض المناصب الحكومية، حتى إذا أُعلن الدستور العُثماني سنة 1908 وبوشر بعد انتخاب نواب من البلدان العثمانية العربية لمجلس النواب العثماني، انتُخب نائباً عن مقاطعة حوران، فقصد الاستانة للقيام بواجبات النيابة)[1].

..و(عاش شكيب أرسلان في حقبة من الزمان ذاتِ أهميةٍ كُبرى في تاريخ الأدب العربي الحديث. فإنه ما كاد عصر الكبار من رواد نهضتنا يُشرف على المغيب في لبنان حتى أنجبه القدر فنشأ في آخر عهدهم، ورافق في حياته جميع التطورات الفكرية والاجتماعية التي حدثت في الشرق العربي. وقد شارك بقلمه ولسانه في هذه التطورات، فترك وراءه أثراً عميقاً من أدبه

---

(1) الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، أنيس المقدسي ص 258 -259.

النثري والشعري.)[1] وكانت وفاته سنة 1946م تاركاً وراءه مجموعة من الكُتب والمؤلفات النفيسة.

.وصف رحلته.

كان شكيب أرسلان (نضوَ أسفار. فمنذ ترك وطنه لبنان وهو في ريعان الشباب قذفت به الأقدار في شتى البلدان الشرقية والغربية، تطول اقامته في بعضها، وتقصر في البعض الآخر تبعاً للظروف والأحوال. ومن البلدان التي زارها أو أقام فيها عدا الشرق العربي: تُركيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا وسويسرا وانكلترا واسبانيا وأميركا وغيرها. وكانت رحلاته ذات ثمار أدبية وسياسية. فألف كتباً وصف فيها ما شاهده وما انطبع في نفسه، وكتب ما لا يُحصى من الرسائل والمقالات السياسية . وبرغم ما شاهده من آثار ومآثر المدنية الغربية وما يتجلى فيها من ظواهر القوة والعلم والحضارة، لم يتزعزع إيمانه بالإسلام وما شاده قبلاً من مدنية شهد لها التاريخ)[2].

وكانت رحلات أمير البيان شكيب أرسلان (إلى أوروبا لغرض سياسي إذ سافر صيف 1917 في مُهمة رسمية إلى برلين، وزار بعض مُدن ألمانيا. ووصف هذه الرحلة في رسالة نُشرت تباعاً في جريدة «الجهاد» المصرية، وفي ثلاث رسائل كتبها فيما بعد سنة 1935 إلى رشيد رضا (ت 1935). ثم أوفده أنور باشا ثانية إلى برلين في حزيران 1918 ليحصل من الألمان على اعتراف باستقلال أذربيجان والطاغستان. وعندما خسرت الدولة العُثمانية الحرب بقي أرسلان في برلين. ثم أقام في سويسرا من أواخر 1918 إلى أوائل 1920. بعد ذلك عاد إلى ألمانيا. ثم سافر في حزيران 1921 إلى موسكو في مهمة سياسية أيضاً. وبين 15 آب و21أيلول 1921 حضر المؤتمر السوري الفلسطيني الذي انعقد في جنيف، ثم سافر إلى لندن في تموز 1922 بشأن الانتداب على سورية

---

(1) المصدر السابق ص258.

(2) المصدر السابق ص 261.

ولبنان وفلسطين. بعد ذلك حضر مؤتمر جنوا في آب 1922، وزار روما. وأقام في سويسرا ما بين 1925 و1946 حيث كانت لوزان ثم جنيف مركزي نشاطه في الدفاع عن البلاد العربية ضد الاحتلال الأوروبي. وسنة 1927 زار كُلاً من الولايات المتحدة وموسكو. وإن لم يخص أرسلان هذه الرحلات كلها بمؤلفات مستقلة، فإنه وصف مشاهداته وانطباعاته في كتابيه «شوقي أو صداقة أربعين سنة» و «السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة» ثم في الفصول الطويلة التي أضافها إلى كتاب لوتروب «حاضر العالم الإسلامي». وقد حج أرسلان إلى الحجاز سنة 1929 ونشر عدداً من رسائله في هذه الرحلة في جريدة «الشورى» ثم ضمنها الكتاب الذي وضعه في رحلته الحجازية «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس المطاف» وفي صيف 1930 زار أرسلان جنوبي فرنسا واسبانيا وتطوان. وفي القسم الفرنسي من رحلته كتب «تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط». أما رحلته الأندلسية فكتب على أثرها مؤلفه الضخم «الحُلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية». وقد ضمنه فصولاً أضافية في التاريخ والجغرافية. وبين 1926و1935 زار أرسلان مراراً بلدان أوروبا الشرقية التي يقطنها المسلمون، ومنها بلاد البوسنة والهرسك التي وصفها في كتاب لا يزال مخطوطاً «الحلة السنية في الرحلة البوسنية»)[1].

.نص مختار من رحلاته.

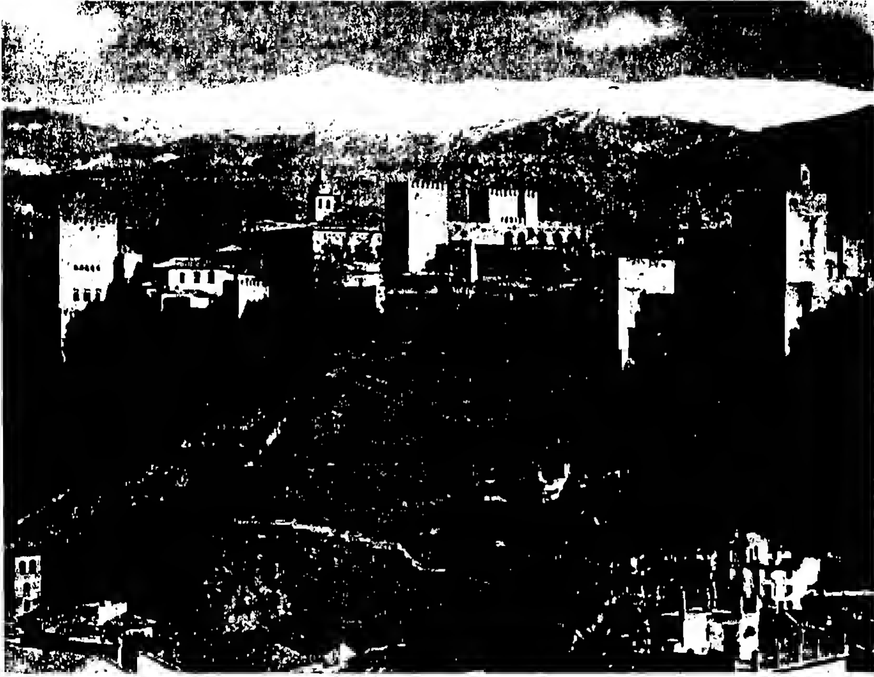
(آثار العرب في اسبانيه)

«لا تزال آثار العرب حية في اسبانية، تشهد بفضل هذه الأمة، وتنطق بامتزاج الإسلام مع الحضارة، وإن كثيراً من الأماكن في تلك البلاد خصوصاً غرناطة وقرطبة واشبيلية بل بلنسية وطليطلة قد يظن الداخل إليها أن

---

(1) الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة الصراع الفكري والحضاري، الدكتورة/نازك سابايارد، ص304 -306.

المسلمين لم يُغادروها إلا مُنذ عهد قريب، وقد اندمج كثير من الأوضاع العربية في البناء بالهندسة الاسبانيولية، كما اختلط اللسان الاسبانيولي بالعربي، وتولدت من هذا الاقتران ألفاظ خلاسية. وقد اتفق المحققون من مؤرخي الافرنجة أن اسبانية كانت مجاز العلم من الشرق إلى الغرب، ومبعث أشعة العرفان، أفاضها العرب، فاستنارت بها أوروبا، واهتدت بها طويلاً، وقد تركوا هناك آثاراً في الصناعة والزراعة والبناء، وافخم ما بقي عنهم منها مبانيها التي لا تزال إلى الآن بهجة السياح ودهشة الناظرين»[1].



الأندلس



---

(1) خُلاصته تاريخ الأندلس، الأمير شكيب أرسلان ص307 بتصرف يسير.

عبد العزيز الثعالبي

(1874 - 1944 م)

عبدالعزيز بن إبراهيم بن عبدالرحمن الثعالبي ...زعيم سياسي، مُناضل، مُصلح اجتماعي، علامة، رحالة ... ألحقه الدارسون بجملة رواد النهضة في العالم العربي أمثال الإمام محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ومحمد رشيد رضا وعبدالرحمن الكواكبي (ولد في مدينة تونس الخضراء في14 شعبان 1293هـ/1874م)[1] وبها نشأ في (كنف جده عبدالرحمن الثعالبي القاضي المجاهد الجزائري الذي هاجر إلى تونس ترفعاً واعتزازاً عن أن يعمل للفرنسيين فورث عنه أخلاقه العالية ومبادئه السامية)[2].



و(حفظ القرآن «بُكتاب» حومة الأندلس ودرس النحو والعقائد والآداب ودخل مدرسة باب سويقة الابتدائية في تونس، ثم التحق بجامع الزيتونة فقضى فيه سبع سنوات وتخرج عام 1896م حاملاً شهادة التطويع وأخذ يتردد على المدرسة الخلدونية مُتبعاً الدراسات العُليا، ولمّا تألف في تونس أول حزب لتحرير تونس ومقاومة الاستعمار الفرنسي عام 1895م انضم إليه ثم أسس الحزب الوطني الإسلامي)[3].

وكانت وفاته في شوال 1363هـ/أكتوبر 1944م في تُونس، ودُفن بها.

---

(1) عبدالعزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية، أنور الجندي ص 10 -11بتصرف.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

. وصف رحلته .

ترك الرحالة الثعالبي مجموعة من الكتب النفيسة والمقالات الرصينة، على أن أهم كتبه هو كتاب (خواطر في رحلتي إلى الشرق) ..(ولقد كان الثعالبي بطبيعته رجل هجرة ورحلة، فقد رحل إلى مصر مُنذ 1897 وكانت له رحلات متوالية إبان العمل الوطني حيث قصد إلى الجزائر والمغرب الأقصى والأندلس واسبانيا وفرنسا وسويسرا. ثم كانت رحلته إلى فرنسا ـ مجدداً ـ والآستانة، ومنها انتقل إلى الهند وجاوه وعاد إلى تونس قُبيل إعلان الحرب العالمية، غير أن رحلته الطويلة تلك التي بدأها أواخر 1923 إلي إيطاليا ومنها إلى اليونان وتُركيا ودخل مصر 1923 ـ أيضاً ـ وزار الحجاز وقصد المحميات العربية وانتهى به المطاف إلى بغداد فاستقر بها من 1925إلى 1931 ثم عاد إلى مصر ومنها قصد إلى الصين 1933 وعاد إليها مرة أُخرى وفي عام 1936 غادرها إلى الهند على أن يرجع إلى تونس فقد أبلغه الفرنسيون أنهم سمحوا له بالرجوع فعاد إلى مصر أواخر ابريل 1937 وفي30 يونيو غادر الاسكندرية إلى تُونس .. وتكاد تكون حياة الثعالبي كلها مُنذ 1897إلى 1937 رحلة متصلة خلال أربعين عاماً كاملة، وهي حياة شاقة فيها الاعتقال والنفي والهجرة، هو خلالها دائب على التجوال ليتعرف إلى أحوال المسلمين في كل مكان، وتبليغ صوت تونس الحُرة إلى كل صقع)[1].

وزار رحالتنا عالي الهمة فرنسا وإيطاليا وسويسره وبلجيكا والهند والصين وتُركيا وأندونيسيا ومصر والعراق وبورسودان ومصوع وعدن والمكلا وبريره وكلكتا وبورما وجزيرة فلغلان وسيام وماليزيا وسنغافوره وسيلان والملايو والفيليبين وهونج كونج والحجاز وطرابلس وغيرها من البلدان والأماكن.

وقد كان الثعالبي في رحلاته صاحب رسالة سامية، يحمل هم نهضة

---

(1) المصدر السابق ص 28 -29 وص 67.

المسلمين بين جوانحه، فلذلك (درس في رحلاته حالة الشعوب الإسلامية دراسة عالمٍ مُحقق)[1] لتخليصها من ربقة الذُل والاستعمار والجهل، وطار من بلدٍ إلى آخر حاملاً رسالة تقاربٍ بين الشعوب الإسلامية، تقوم على أساس (الدين الإسلامي) الذي دعا إلى الحُرية والتفاني في سبيل طلبها، ومشى الثعالبي على فِكرة (لا يصلح آخر هذه الأُمة إلا بما صلح أولها).

- نصوص مختارة من رحلاته.

(ايام في الهند)

«لقد ذهبت إلى الهند في رحلاتي إلى الشرق الأقصى خمس مرات، وكنت في كل مرة أعود منها اشعر بنوع من الحنين إليها والشغف بالرجوع إليها عند أول فرصة سانحة وعلى كثرة ما شاهدت من الأحياء وشاهدت من الأشياء، لم اجد بيئة تجتمع فيها الغرائب وتضطرم فيها العقائد وتتصهر فيها النفس الإنسانية مثلما وجدت في الهند. ملايين الناس وآلاف البيئات ومئات اللغات، جميع الأديان من الوثنية التي تؤمن بالأحجار إلى الصوفية التي تفنى في ذات الله. حدث ذات مرة أن دُعيت لمؤتمر جمعية العُلماء في بنارس فأخذت القطار من بومباي وسار بي إلى وسط الهند وفي بعض المحطات كان يقف فيها، كنا نجد جموع المسافرين من الهندوسيين تمد أيديها من النوافذ باكواب لكي ينالوا جانباً من الماء الذي يصبه السُقاة من البراهمة وهم يركضون، وذلك لأن كل هندوكي يخشى إن هو استبقى ماء معه في رحلته أن تصله نجاسة من شخص قريبٍ منه باللمس أو الظل أو النظر فيحرم عليه ولذا يفضل أن يبقى ظمآن على الرغم من شدة الحر حتى ينال جُرعة ماء طاهر من الساقي. وكان مفروضاً أن يصل القطار إلى بنارس في منتصف الليل ولكن مشقة الرحلة اضطرتني إلى الإغفاء فأغلقت باب الديوان ونمت وحين

(1) المصدر السابق.

جاء وفد جمعية العلماء إلى محطة بنارس وبحث عني لم يهتد إلى مكاني فسار بي القطار إلى مدينة جواديا وهذه المدينة مركز الدعاية البوذية وفيها يعيش نفر كبير من أتباع كهنة جوتاما بوذا ولم يكن هناك سبيل إلى البقاء في هذه البلدة، فأخذت القطار العائد إلى بنارس وعند وصولي اسلمت متاعي إلى عربة إذ لم يكن أحد بانتظاري وطلبت من السائق الذهاب بي إلى أكبر فنادق المدينة. فسارت العربة نحو ساعة وأنا قلق من هذه الرحلة الطويلة التي لا أفهم لها سبباً وإذا بها تقف وإذا بأربعة رجال يأتون من بناء مُقابل ويحملون حقائبي فظننت أنهم من خدم الفندق الذي أريده فلما تبعتهم ودخلت البناء وجدت نفسي في مسجد كبير وكان الوقت موعد صلاة الصُبح فما إن انتهيت من الصلاة حتى وجدت المصلين قد ضربوا حلقة حولي وسألني أحدهم (أنت سيد؟) أي من الأشراف فقلت : أجل. فطأطأ الجميع رؤوسهم قليلاً وأخذوا يُحدقون بي وهم صامتون كأنما هم حول معبود من معبودات الهند الكثيرة وبلغت بي الحيرة مبلغها ولم يُنقذني إلا وصول الشيخ عبدالحميد مندوب جمعية العُلماء الذي علم بقدوم زائر مسلم غريب إلى المدينة فأخذني من بين القوم وأمر بحقائبي فحُملت إلى منزله وسار بي إلى مقر الضيافة عنده وبعد أن استرحت واستقبلت بعض الزائرين احسست بحركة غريبة في المنزل فقد كان كثيرون يأتون إلى الشيخ عبدالحميد ويُسرون في أُذنه كلاماً وكان هو كثير الاضطراب يذهب ويعود وكنت أسمع ضجة في الخارج، حسبتها أول الأمر عارضة ولكن تكرارها في ساعات متعاقبة حملني على أن أذهب إلى الشُرفة، لأرى ما هنالك وقد وجدت شيئاً عظيماً، آلاف من الناس تتجمع أمام المنزل وفي الطرقات ويصيح بعضها صياحاً مُنكراً فلما استفهمت عن جلية الخبر قيل لي أن هؤلاء المُتظاهرين من فريق المسلمين السلفيين الذين يؤمنون بالكتاب والحديث ويرفضون ما عداهما وأن الشيخ عبدالحميد من فريق الشافعية وكلا الفريقين يُخالف الآخر خلافاً عنيفاً وقبولي لضيافة الشيخ عبدالحميد تكفي لرميي بما يُرمى به فريقه ولذا فهم مستاؤون من

أني ذهبت إلى مسجدهم وقد طهروا المسجد مراراً ودامت هذه الفتنة أربعة أيام ولم اتمكن خلالها من زيارة بعض كبار الهندوس وعلى الأخص الفيلسوف (بهوانداس) وبعض معالم الهندوسيين، وبعد أن عادت السكينة إلى المدينة زُرت مسجد بنارس ذا القُبة الذهبية وكان قديماً معبداً هندوسياً فانتزعه الملك أورانجريب من كهنته وحوله إلى مسجد»[1].

(اليمن ..قطعة من أوروبا)

«لقد قرأت ما كتبه المتقدمون من رومان ويونان في وصف اليمن وما كنت أحسب عند سفري إليها أنني سأرى فيها أوروبا فإن البلاد كلها تشقها جبال مكسوة بالأحراش تتخللها الزهور العطرة فالجو دائماً معطر بعبير الياسمين وهُناك حيث السماء الصافية والنجوم المتألقة والأرض المُزهرة تجود عبقرية الشاعر. وهُناك حقول شاسعة للزراعة مُنسقة أحسن تنسيق تُزرع فيها الحبوب بأنواعها المعروفة في بلادنا والدخان[2] والنيلة والقطن والبن والقات، وقد لاحظت رُقي الزراعة في تلك البلاد فالحرث مُتقن والتنقية دقيقة، حتى أنك لا تجيىء على عُشبة في الأرض، والأرض ذات خصب كبير وكثيراً ما يبلغ طول عود الذُرة ثلاثة أمتار حتى أن القافلة لو دخلت مزرعة ذرة لحجبتها عن الأنظار ومما يذكر أن البعض يُزرع مرة ويُحصد ثلاث مرات مثل أرض (لحج) وهي كثيرة الأمطار وجبالها مرتفعة. ومن يطوف اليمن يعتقد أنها ذات مدنية عريقة وليست بلاد بداوة يرى أنها تجمع بقايا مدنيات درست وقد كنت أرى القصور الشاهقة ذات الهندسة العجيبة منتشرة في مركز متصرفية الحدود إلى مدينة صنعاء ولم أقع في طريقي على بيوت الشعر أو الخصاص التي كُنت أراها في الحجاز والعراق أحياناً»[3].

---

(1) عبدالعزيز الثعالبي رائد الحُرية والنهضة الإسلامية، أنور الجندي ص 74 -76.

(2) كذا في الكتاب ولعله الدُخن.

(3) المصدر السابق ص 73.

(العراق بلاد غنية .ولكن)

«العراق بلاد غنية لها مستقبل حسن إذا وجدت الأيدي التي تُساعد على استثمار منابع الثروة الغزيرة فيها فالعراق يصح أن يكون من خير مشاتي العالم متى مدت السكة من حيفا إلى بغداد إذ يتيسر إقامة فنادق على شاطئ الفرات وجعل هذا الشاطئ قبلة السائحين الأوروبيين والأمريكيين وقد درست بنفسي أجمل مشاتي العراق وهي المنطقة الممتدة من الهندية إلى الكوفة حيث الحدائق والنخيل تمتد على ضفاف الفرات مُتطاولة متناسقة تتعكس صورها على ماء النهر فيرى الإنسان منظراً من أبدع المناظر لم يُر له مثل إلا على شواطئ سومطرة وجزائر البحر الهندي ويجد السائحون في فصل الشتاء هُناك ربيعاً ويمتد من ديسمبر إلى مارس»[1].



(1) المصدر السابق ص 70 - 71.

محمد كُرد علي

(1876 - 1953 م)

محمد بن عبدالرزاق بن محمد كرد علي. لُغوي، أديب، رحالة ..ولد في مدينة دمشق سنة 1293هـ/1876م .و(تعلم في المدرسة (الرشدية) الاستعدادية، وتُوفي والده وهو في الثانية عشرة من عُمره، فابتدأ حياته الاستقلالية صغيراً، وأقبل على المطالعة والدروس الخاصة، فأحسن التُركية والفرنسية، وتذوق الفارسية، وحفظ أكثر شعر المتنبي ومقامات الحريري)[1]...كتب في مجموعة من أشهر الصُحف والمجلات - حينها - وأسس مجلة (المقتبس) الشهيرة سنة 1906م،



وترك مؤلفات كثيرة جعلته في مصاف كبار الكُتاب العرب، وأسس المجمع العلمي العربي بدمشق سنة (1919م) وتولى رئاسته. وكانت وفاته بدمشق سنة 1372هـ/1953م.

. وصف رحلته .

ترك محمد كُرد علي كتاباً في الرحلة بعنوان : (غرائب الغرب)، وهو خلاصة ثلاث رحلاتٍ قام بها إلى أوروبا، ابتدأها سنة 1908م. وفي كتابه هذا عرج في الحديث عن دمشق ولبنان ومصر لابتداء مسيرة رحلته إلى أوروبا من هذه الأماكن وعن كتابه هذا يقول: (هذه فصول ومقالات بل آهات كتبتها في وصف معالم الغرب وما لقيته وقد زرته ثلاث مرات الأولى في شتاء سنة 1327ـ(8و1909)، والثانية في شتاء سنة 1913 -1914، والثالثة في سنة

---

(1) الأعلام، خير الدين الزركلي ج 7 ص 73.

1340ـ1921 -1922)[1]، وقد زار كلاً من فرنسا وانكلترا وألمانيا وإيطاليا واسبانيا وسويسرا والبلجيك وهولاندا والنمسا والمجر والبلقان والآستانة واليونان. وعن دوافع رحلته هذه قال: (كان من أعظم أماني النفس مُنذ بضع سنين أن أرحل إلى أوروبا رحلة علمية أقضي فيها ردحاً من الدهر، للتوفر على دراسة حضارة الغرب في مبعثها، واستطلاع طلع المعاهد، التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون، والفلاسفة المنزهون، والصُناع والزُراع والماليون، وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها إلى أن قدر الله فأقام والي سورية السابق تلك القضية الملفقة على جريدة[2] المقتبس واحتال انتقاماً لنفسه لاقفال المطبعة وتوقيف الجريدة والمجلة قبل صدور حُكم المحكمة عليّ فقلت الآن حان وقت الرحلة في طلب العلم والتفرغ لتحقيق ما في الخاطر، ريثما يتبين الحق من الباطل، والحالي من العاطل، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم)[3]. ويرى الرحالة محمد كرد علي أن الرحلة والسياحة في الأرض تجديد للحياة ـ الرتيبة ـ وتهذيب للنفس الملولة، حيث يقول: (السياحة تُجدد الحياة وتزيد الاختبار وتعلم وتهذب وتزيد في الاعتبار بحوادث الليل والنهار، وإني لأتمنى لكل من ساعدته الحال أن ينهض ليعتبر ويتعلم ويتسلى فإن النفس في قرارها تصدأ كما يصدأ الحديد بالرطوبة فهي تحتاج للنور والحرارة وإلاّ فتذبل الزهرة)[4].

ـ نصوص مُختارة من رحلته ـ

(باريس)

«إن فاخرت باريز بمعارضها التي أقامتها في أوقات مختلفة لتلفت إليها الأنظار، وتستفيد الفخار والنضار، فإن لها لكل ليلة معارض لا تختلف عن

---

(1) غرائب الغرب، محمد كرد علي.

(2) هذه الجريدة أسسها محمد كرد إلى جانب مجلة (المقتبس).

(3) المصدر السابق ص4.

(4) المصدر السابق ص305.

السابقة إلا في كون البقعة التي تقوم عليها هذه أوسع مجالاً، وأكثر جمالاً. يصرف الباريزيون أو معظمهم نهارهم في الاستعداد لليلهم، وكثيرون لا يعملون إلا في الليل ويصرفون النهار في جمع قواهم، وادخار أحسن ما عندهم لما بعد الشفق، فهم لا يجعلون الليل لباساً والنهار معاشاً كما هي عادة مُعظم الأمم، بل إن الحركة عندهم تبدأ قُبيل الظهر بطيئة، ولا تزال تنمو حتى تغيب الشمس، وتطلع بدلها شموس وأقمار. ترى المدينة في النهار عابسة مُظلمة على كثرة جاداتها الكُبرى وشوارعها المغروسة على جانبيها بالأشجار غالباً وطُرقها وأزقتها وساحاتها العامة. وفي هذه الأماكن تشهد مجالس الحُسن والإحسان، وما تفننت في إبداعه العوامل، وتلطفت في روائه الأفكار والأنامل. على تلك الأرصفة تُناجي النفس رب النجوى قائلة: اللهم هل خلقت باريز من معدن اللطف والظرف، لتكون مثالاً من جنةٍ أرضية فخصصت أهلها بالاستمتاع بنعمة الجمال، حتى لكأنك شطرته شطرين شطر وقفته على الباريزيات، وشطر وزعته على سائر بنات حواء»[1].

(طباع السويسري)

«السويسري على اختلاف أصوله ولغته أفرنسياً كان أو ألمانياً قليل الفضول، لا يسألك في الفندق ولا في الشارع إذا تعرفت إليه عن مقاصدك ولا يتتبع عوراتك، ولا يسألك أسئلة لا تُحب أن تُجيب عليها ..والسويسري كالإيطالي والألماني والانكليزي كثير الولد والذرية وأولاده لا يُعدون بالزوج بل بالعقد وبلغني أنه ولد لأحدهم من زوجةٍ واحدة ثلاثون ولداً«فقط لا غير» أما الأزواج الذي رزقوا العشرة والخمسة عشر ولداً فهؤلاء أكثر من أن يُحصوا فأولاد السويسريين كالبيض أو البرتقال يُعدون بالخمسات والعشرات ..يلعب الأولاد حول أُمهم وفي الحقل حتى السابعة من عُمرهم ثم يذهبون إلى المدرسة وعندئذٍ يقل لعبهم حتى أن ابنة العاشرة أو الثانية عشرة تعمل أعمالاً

(1) غرائب الغرب، محمد كرد علي. الجزء الأول ص 51 -52.

من الخدمة وتحصيل المال يعجز عنها ابن العشرين أو الثلاثين في شرقنا»[1].

(الإنكليز)

«الإنكليز أعجب أُمم الحضارة في أخلاقهم وعاداتهم لا يقبلون الجديد إلا بشق الأنفس ولكنهم إذا قبلوه تناغوا فيه وحرصوا عليه وبرزوا على من سبقهم وسابقهم»[2].



(1) المصدر السابق ص 257 -258 بتصرف.

(2) المصدر السابق ص 184.

أميـن الـريحـانـي

(1876 - 1940 مـ)

أمين الريحاني .. أديب، شاعر، مُفكر، سياسي، كاتب، رحالة .. ولد سنة 1876م (في قرية الفريكة بلبنان، وهي قرية صغيرة ولكنها اصبحت به ذات شُهرة واسعة، وفيها تلقى دروسه الابتدائية. ولما بلغ الثانية عشرة هاجر مع بعض ذويه إلى نيويورك طلباً للرزق، واستقر معهم في بعض أحيائها الحقيرة. ومنذ ذلك الحين حتى توفاه الله وهو في الرابعة والستين، تقلبت عليه أطوار شتى أصبح في نهايتها علماً من أعلام الأدب في الشرق



والغرب)[1] وكانت وفاته سنة 1940م بعد أن ملأ الأصقاع والبقاع بصيته الذائع وشُهرته الفائقة كأديب يحمل رسالة تنويرية لأبناء الأمة العربية، ..رحل بعد أن شنف الآذان بخطبه البليغة وامتع العقول بفكره وأدبه الرصين.

. وصف رحلته .

جعل النُقاد والدارسون للأدب العربي السيد/أمين الريحاني على مصاف الرُواد من أعلام النهضة العربية الحديثة، وكنتيجة لذلك جاءت كُتبه المختلفة على قدرٍ عالٍ من الإبداع والسلاسة والمُتعة التي تشحذ الفكر بلطيف المعاني الرائقة، وجماليات الصور والتعابير الدقيقة والرصينة. ومن أجمل

(1) الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، أنيس المقدسي، ص 453.

كُتبه تلك التي دون فيها رحلاته المختلفة ومشاهداته في الأصقاع والبلدان التي زارها ... ويختلف أمين الريحاني عن الرحالة العرب في عصره ذلك أنه نشأ في الولايات المتحدة، وتعرف بعد ذلك بأوروبا والبلاد العربية. فسنة 1916 كان في فرنسا، ثم زار الأندلس سنة 1917، وعلى أثر ذلك كتب مقالته «نور الأندلس» وبعض الرسائل. وحوالي سنة 1918م زار يوكانان في المكسيك ووضع في الإنكليزية The Land Of the Mayas الذي لا يزال مخطوطاً. وفي شباط 1922 قام الريحاني برحلته الأولى إلى البلاد العربية حيث زار الحجاز واليمن وعسير ولحج[1] والبحرين ونجد والكويت والعراق، وكتب على أثر هذه الرحلة «ملوك العرب» وفي نيسان 1939 قام الأمين برحلة إلى منطقة الحماية الأسبانية من المغرب الأقصى، ثم زار اسبانيا نفسها، ووضع كتابه «المغرب الأقصى»[2].

.نص مختار من رحلاته.

(صنعاء ... مدينة الأساطير)

«.. وما هي إلا ساعة بعد ارتحالنا من حِزْيَز حتى تراءت لنا رؤوس المآذن في تلك المدينة. ثم قباب مساجدها وهي بيضاء تتوهج في نور الشمس الذي يترجرج كالزئبق في الجاف الشفاف من الهواء. بينما نحن ندنو من نقم الذي أصبح على يميننا، إذ بدت لنا المدينة نفسها وهي محاطة بالجبال تمتد شرقاً وغرباً، كأنها وهي كلها بيضاء، سلسلة من التلال الكلسية، في سهل ذهبي منقطع الاخضرار. اثنا عشر يوماً في المشقات. وهذه صنعاءُ تنسيك اضعافها. أي صنعاء، مثلك لنا التاريخ فكنت مليكة الزمان، ومثلك لنا العلم فكنت يوماً ربة العرفان، ومثلتك لنا الأساطير فكنت سيدة الجن والجان. أجل، فكم من ليلة وفي اليد الكتاب وإلى جانب الكتاب نور شمعة ضئيل،

---

(1) لحج محافظة يمنية.

(2) الرحالون العرب وحضارة الغرب، الدكتورة /نازك سابايارد ص 306 -308 بتصرف.

تغلغلنا في سراديبك، ووقفنا عند كنوزك، وطفنا حول قصورك، وسمعنا الشعراء ينشدون الشعر في دورك. واليوم ومطيتنا غير الخيال، نشاهد ما يُثبت المقال، ويحقق الآمال. هذه بيوتك العالية وقصورك الشاهقة فما كذب التاريخ. وهذا جمالك الطبيعي وبهاؤك العربي فما كذب الشعر. وفي خزائنك الكُتب النفيسة والمخطوطات فما كذب العلم. وهذه كنوزك وسحر قصورك وسحر الأسماء فيك فما كذبت الأساطير كنا نظنها أسماء ابتدعها الشعراء لعرائس الجن والخيال. ولكنها من الحقيقة في أعلى مكان..أجل إن صنعاء في محاسنها لا تُخيب للزائر أملاً. وكلما دنوت منها وهو عكس الحقيقة في أكثر المدن، ازداد رونقها وازداد اعجابك بها. هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة. فيها الهواء أعذب من الماء، والماء أصفى من السماء، والسماء أجمل من حلم الشعراء. وفيها البرد، وقد علت تسعة آلاف قدم عن البحر يستحيل لقربها من خط الاستواء دفئاً»[1].



(1) ملوك العرب، أمين الريحاني ص 119 -120 بتصرف يسير.

مصطفى عبدالرازق

(1885 - 1946 مـ)

مصطفى عبدالرازق ...أديب الرحالة، ومن علماء الأزهر المشهورين بعلمهم الغزير وثقافتهم الواسعة، وانفتاحهم على الآخر. ولد سنة 1885م وكانت وفاته بالقاهرة سنة 1946م .



. وصف رحلته .

(قام الشيخ مصطفى عبدالرازق برحلة دراسية إلى فرنسا «1909 -1914» وكان مثالاً صريحاً لمن أحبوا باريس حباً جماً)[1] (وكان أحد الذين رأو التوفيق بين حضارتي الشرق والغرب)[2].

. نص مختار من رحلته .

(باريس عاصمة الآخرة !!)

«ليست باريس من صنع شعبٍ من الشعوب ولا عمل عصرٍ من العصور، ولكنها جماع ما استصفاه الدهر من نفائس المدنيات البائدة، وما تمخض عنه ذوق البشر وعلمهم من آيات الفن والعلم والجمال، باريس جنة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، فيها للأرواح غذاء وللأبدان غذاء وفيها لكل داءٍ في الحياة دواء. فيها كل ما ينزع إليه ابن آدم من جدٍ ولهو ونشوةٍ وصحو ولذةٍ وطرب وعلم وأدب، وحرية في دائرة النظام لا تحدها حدود ولا تُقيدها قيود. باريس عاصمة الدُنيا، ولو أن للآخرة عاصمة لكانت باريس»[3].

---

(1) تجليات باريس، د/إيهاب النجدي، مقالة منشورة بمجلة العربي عدد 595، يونيو 2008م ص63.

(2) أدب الرحلات، د/حسين محمد فهيم ص 212.

(3) النص ..نقلاً عن المصدر السابق ص 212 -213.

فيـليب حتّــي

(1889 - 1978 مـ)

فيليب حتّي .. مؤرخ، رحالة. ولد سنة 1886 (وينحدر من عائلة لبنانية ..تلقى علومه الإبتدائية في قريته شملان قُرب سوق الغرب جبل لبنان، وتخرج في الجامعة الأميركية في بيروت العام 1908، ودرس فيها مادة التاريخ من 1908 حتى 1913. وانتقل بعدها إلى الولايات المُتحدة ونال درجة دكتوراه من جامعة كولومبيا في 1916. عاد إلى بيروت العام 1908، ودرس فيها مادة التاريخ من 1908حتى 1913. وانتقل بعدها إلى الولايات المُتحدة. ثم عاد إلى بيروت وانضم إلى الجامعة الأمريكية كأستاذ للتاريخ الشرقي في 1920. وبعد مُضي ست سنوات بدأ عمله في جامعة برنستون الأميركية حتى تقاعده سنة 1954. وترك عدداً من المؤلفات بالانكليزية والعربية أهمها: تاريخ العرب، مُذكرات أُسامة بن مُنقذ، وتاريخ سوريا ولبنان وفلسطين)[1] وكانت وفاته سنة 1978م.



. وصف رحلته.

في سنة 1922 و1923م نشرت مجلة الهلال المصرية نص رحلة المؤرخ العربي فيليب حتي إلى أميركا، وكان النص تحت عنوان (أميركا في نظر شرقي) (ويرتدي هذا النص أهمية خاصة إذ يكاد يُشكل أول وصف حي داخلي للمجتمع الأميركي وعاداته وتقاليده ونظمه التربوية والاقتصادية والسياسية، وهو علاوة على فرادته فإنه يُنبىء عن بداية تحول أساسي إزاء

(1) الرحلة العربية الحديثة من أوروبا إلى الولايات المتحدة، د/يوسف الشويري ص 125.

القارة الأوروبية ومدنيتها التي فتنت الأدباء والمفكرين العرب على امتداد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين)[1]. وكان هدف فيليب من نشر نص رحلته هو الرغبة (في كشف أسرار النفس الأميركية، وهو بذلك يُتابع رغبات من سبقوه عندما يمموا شطر دول أوروبا الغربية. ويقوده هذا الطموح إلى التركيز على البناء الداخلي والعادات الشعبية، ووصف تصرفات أفراد النُخبة من الحُكام ورجال الأعمال. وكان يرمي من وراء ذلك إلى تقديم لوحة متكاملة تُظهر الأسباب الكامنة وراء الازدهار الاقتصادي، والتفوق العلمي وطبيعة الديمقراطية في فضائها الأميركي الذي يُوحي بانعدام وجود التفاوت بين الطبقات الاجتماعية وانبثاق الحُكم السياسي من الشعب مباشرة.)[2]

. نصوص مختارة من رحلته .

(الأميركي خارج بلده ..إنسان غامض)

«الأميركي تلتقي به على جسر الأمم ـ جسر غلطة ـ في الآستانة، وتُقابله في بهوشبرد هوتل في القاهرة، وتُخالطه في الجامعة الأميركية في بيروت، ولكن الأميركي لا تفهمه كما هو، وتُدرك حقيقة كنهه، وتُحيط علماً بروحه وأخلاقه إلا في وطنه، في أميركا، كما أنه لا يُمكنك درس طبائع الدُب الأبيض في حديقة الحيوانات ولا عادات القرد الأفريقي في قفص الفرجة. للأميركي ميزات وصفات تجعله أميركياً وتُميزه عن الانكليزي وعن الألماني وعن الفرنسي. فيه ذاتية وطنية، وروح خاصة، ونفسية معينة تقطن الوطن الأميركي وتُقيم في بلاده»[3].

---

(1) المصدر السابق ص119.

(2) المصدر السابق ص 124.

(3) مجلة الهلال، السنة الحادية والثلاثون، 1922 -1923م، مقالة (أميركا في نظر شرقي) للرحالة المؤرخ/ فيليب حتّي، نقلاً عن المصدر السابق ص 130.

(حيوية الشعب والخفة في الحركة)[1]

أول ما يتأثر به الزائر لدى احتكاكه بالشعب الأميركي هو حيوية ذلك الشعب المتناهية أي قوة الحياة التي فيه. حالما يُشرف الغريب من ظهر الباخرة على مدينة نيويرك ـ باب الولايات المتحدة ـ يحيي نظره في الأُفق البعيد سلسلة مترامية من البنايات الناطحة السحاب (Skyscrapers) ذات الطبقات الخمسين والستين، فيتبادر إلى ذهنه للحال أنه قادم إلى بلاد إنسانها جبّار في فصيلة الإنسان، وبطل بين صعاليك البشر. ولا تلبث قدماه أن تطأ الأرض حتى يسترعي انتباهه اندفاع القوم في العمل، وخفتهم في الحركة، وتسابقهم وازدحامهم ونشاطهم، فتتمكن الفكرة في رأسه بمرور الأيام أنه في بُقعة لا كالبقاع وبين شعب فائقٍ على الشعوب، ممتاز بحيويته وفاعليته منفرد بغزارة قوته العصبية. وما البنايات الشاهقة العديمة المنال، والخطوات النشيطة السريعة، والمقدرة على الانصباب والانغماس في الأعمال سوى مظهر تظهر فيه حيوية شعب ناهض فتيّ، ينبض في عروقه دم الشباب صافياً نقياً. والخفة في الحركة هي أول مظهر خارجي سطحي تظهر فيه حيوية الشعب الأميركي، وأول شيء يستجلب انتباه الغريب بينهم. انظرهم على الشارع وفي السوق، كباراً وصغاراً، نساءً ورجالاً، يتزاحمون ويتسابقون، هذا ليركب القطار السائر على سطح الأرض، وذاك ليلحق بالقطار المرتفع فوق سطح الأرض (القطار الهوائي القائم على أعمدة Elevated)، وآخر لينزل في القطار الغائص تحت سطح الأرض (قطار النفق Subway)، وغيره ليمسك عربة الترامواي أو السيارة سيل من البشر مُتدفق ـ بالمعنى الحرفي لا المجازي ـ في الأسواق، زاحف في الشوارع، أبداً متغير، وأبداً هوهو. لا صوت إلاّ ما كان ضرورياً تستلزمه طبيعة الحال، ولا إتلاف في القوى على غير داع. أول مرة رأيت القوم يتراكضون فعلاً للحاق بعربة الترامواي حسبت تلك العربة الأخيرة

(1) العنوان من المصدر السابق ص 132.

من نوعها. وإذا بالثانية وراءها، والثالثة تلو الثانية، والرابعة خلف الثالثة وهلم جرّاً إلى آخر ما تصل إليه العين، ليس بين الواحدة والأُخرى أكثر من مئة يرد أو مئتين. على أن نصيب كل واحدة من العربات كان نصيب الأولى من حيث الإقبال والازدحام. وقفت على رصيف الشارع لأحني رأسي إلى الوراء فتكتحل عيناي بمرأى أبراج البنايات الشاهقة التي كنت أُسير في ظلها، ولكن على غير جدوى . إلى الأمام يسير القوم، وإلى الأمام لا بُدّ لي أن أسير، شعرت للمرة الأولى أني لست فرداً مستقلاً في دائرة. بل جزءاً من كل نقطة في موجة، والموجة متحركة تدفعك اجزاؤها بقوة استمرارها إلى الأمام فلا سبيل لك إلى الوقوف حتى تصل إلى منعطف الطريق أو آخر الشارع حيث تتكسر الموجة وتتبعثر عناصرها. إذا وقف قطار النفق أمامك وفُتحت ابوابه في وجهك فلا تُجهد نفسك بتحريك العضلات ومحاولة الدخول. سيل البشرية المُندفع في وجهة الباب يتكفل بازاحتك ونقلك إلى الداخل على ما هو مطلوب، بدون اهتمام أو عناء. سلم جسدك لمن وراءك، ومن وراءك يتدبر أمر دفعه للأمام حالما يفسح المجال من قدامك. الوصية الأولى التي تقرع طبلة أُذنيك حالما تحرك خُطاك على الجسر الخشبي الواصل بين الباخرة والبر، والفاصل بين العالم القديم والعالم الجديد، هي Step lively «أسرع خُطاك». وهي الوصية التي يُعيدها ويكررها في آذانك جرس القطارات والحافلات والناقلات في كل البلاد. فكأنما اسراع الخطى شعار الحياة الجديدة وآيتها الذهبية. الوصية الأولى التي يسمعها الزائر لبلادنا هي «على مهلك» «دير بالك» «إياك والوقوع» وفي الوصتين دليلان على فلسفة الحياة كما يفهمها الغربيون وفلسفة الحياة عند الشرقيين «الأميركي يأكل بعجلة، ويمشي بعجلة، ويعمل بعجلة، ويعيش بعجلة، ويموت بعجلة، ويدفن بعجلة . عجلة السيارة» هذا ما لاحظه كل من درس الشعب الأميركي ناقداً، وردّده الكثيرون من الكتبة الأوروبيين من افرنسيس وانكليز والمان وايطاليان واسبان. الخياط يكتب على بابه أنه يكوى ثيابك ويرتقها وأنت واقف بانتظارها (While

you wait) صانع الأحذية يُعلن أنه يُصلح حذاءك بما فيه من نصف نعل وعقب مطاط (كاوتشوك) وأنت جالس على كُرسي في محله. وكثيرة هي المطاعم الموسومة (Quick Lunch) أي مطاعم الغذاء السريع. تقعد في كُرسي الحلاقة فيباشر الواحد قص شعرك، والثاني قلم أظافرك، والثالث مسح حذائك، عمليات ثلاث في وقت واحد على شخص واحد. ومن النُكات اللطيفة التي يوردها الأميركان ومنها تتجلى هذه الميزة من ميزاتهم القومية نُكتة بشأن ممثل لإحدى شركات التأمين جاء ليقنع تاجراً من كوبا مُقيماً في الولايات المتحدة بضرورة التأمين على حياته. ومما قاله له «حتى فيما إذا وقعت من هذا الشباك العالي فقبل أن تلمس الأرض تكون الدراهم قد أرسلت إلى زوجتك» .. ولكن لنفرض أجاب الكوبي مُنذهلاً «أني لم أصب بضرر فماذا تفعلون؟ قال: نكون قد أرسلنا تلغرافاً ثانياً بتوقيف الدفع»[1].

(صورة الولايات المتحدة)

«حاولت الحُكم على الولايات المتحدة بأحسن ما فيها ... وكان بوسعي أن اصور مدنيتها بصورة سوداء مظلمة، وآتي بصورٍ فظيعة حقيقية تُمثل الحياة الاجتماعية في القسم الشرقي من مدينة نيويورك وفي غيرها من المدن حيث الشقاء يُعشش والرذيلة تبيض والجهل ضارب أطنابه. ولكني بذلك لا أنصف الشعب بل ارتكب نفس الجُرم الذي يرتكبه بعض المبشرين الذين يسودون صحيفة الشعب السوري في بلادهم بذكر نقائضه فقط»[2].



(1) المصدر السابق ص 132 -135 بتصرف يسير.

(2) المصدر السابق ص 124 -125 بتصرف يسير.

المصادر والمراجع




1. الرحلات، شوقي ضيف. دار المعارف ط 4، 1987م.
2. أدب الرحلات دراسة تحليلية من منظور انثوجرافي، حسين محمد فهيم. كتاب عالم المعرفة رقم 138 الصادر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت سنة 1989م.
3. الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة الصراع الفكري والحضاري، نازك سابايارد، مؤسسة نوفل (بيروت ـ لبنان) ط1 سنة 1979م.
4. الإفادة والإعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، عبداللطيف البغدادي، تحقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة للنشر والتوزيع (دمشق) ط1 سنة 1983م.
5. علي مبارك المفكر والمعمر، سمير أبو حمدان، الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب العالمي (بيروت ـ لبنان) طبعة سنة 1993م.
6. رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية المسماه (تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا)، قدم لها وحررها محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة (بيروت) طبعة سنة 1992م.
7. أدب الرحلة تاريخه وأعلامه (المسعودي ـ ابن بطوطة ـ الريحاني)، جورج غريب، دار الثقافة (بيروت ـ لبنان) ط1 سنة 1966م.
8. ابن بطوطة ورحلاته، تحقيق ودراسة وتحليل حسين مؤنس، كلية الآداب ـ جامعة القاهرة 1980م.
9. دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للهجرة، أحمد

الإيبش وقتيبة الشهابي، الجزء الأول، من منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية (دمشق سنة 1998م).

10. رحلة الحبشة من الأستانة إلى أديس أبابا، صادق باشا المؤيد العظم، حررها وقدم لها نوري الجراح، دار السويدي للنشر والتوزيع (الإمارات - أبو ظبي) بالاشتراك مع المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت) ط1 سنة 2001م.

11. الرحلة العربية الحديثة من أوروبا إلى الولايات المُتحدة، يوسف الشويري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت) ط1 سنة 1998م.

12. من أدب الرحلات، عماد الدين خليل، دار حضرموت للدراسات والنشر، (المكلا - الجمهورية اليمنية) ط1 سنة 2002م.

13. رحلة ابن معصوم المدني (سلوة الغريب وأسوة الأريب)، تحقيق شاكر هادي شُكر، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية (بيروت).

14. رحلة السودان للشيخ محمد بن علي بن زين العابدين، نقلها إلى العربية عبدالله معاوية، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة - قُرطاج 1993م.

15. رحلة ابن بطوطة، دار صادر (بيروت - لبنان) ط1 سنة 2005م.

16. رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير، دار ومكتبة الهلال، ط2 سنة 1986م.

17. كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، المراكشي، نشر وتعليق سعد زغلول عبدالحميد، دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية (بغداد - العراق) بالاشتراك مع دار النشر المغربية، طبعة خاصة بالمشرق العربي سنة1986م.

18.رحلة إلى أوروبا، جرجي زيدان، حررها وقدم لها قاسم وهب، دار السويدي للنشر والتوزيع (أبوظبي) بالاشتراك مع المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت ـ لبنان) ط1 سنة 2002م.

19.رحلتان إلى سورية، محمد رشيد رضا، حررها وقدم لها زهير أحمد ظاظا، دار السويدي للنشر والتوزيع (أبوظبي) بالاشتراك مع المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت) ط1 سنة 2001م.

20.اليمن في عيون الرحالة، عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع، دار الفكر المعاصر (بيروت ـ لبنان) ودار الفكر بدمشق سورية ط1 سنة1993م.

21.أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، محمد بن أحمد المقدسي، اختار النصوص وعلق عليها وقدم لها غازي طليمات، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق سنة 1980م.

22.الرحالة اليمنيون رحلاتهم شرقاً وغرباً، عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد (صنعاء ـ اليمن) ط1 سنة 1989م.

23.خُلاصة تاريخ الأندلس، شكيب أرسلان، دار مكتبة الحياة (بيروت ـ لبنان) طبعة سنة 1983م.

24.إعجام الأعلام، محمود مصطفى، دار الكتب العلمية (بيروت ـ لبنان) ط1 سنة 1983م.

25.معجم البلدان، ياقوت الحموي، مطبعة السعادة (مصر) ط1 سنة 1906م.

26.ملوك العرب، أمين الريحاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت) ط1 سنة1980م.

27.التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، عبدالرحمن بن خلدون، عارضه بأصوله وعلق حواشيه محمد بن تاويت الطبخي، مطبعة لجنة التأليف والنشر (القاهرة) طبعة سنة 1951م.

28.غرائب الغرب، محمد كرد علي (المكتبة الأهلية) مصر المجلد2 ط2 سنة 1923م.

29.كتاب البلدان، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي، دار إحياء التراث العربي ط1 سنة 1988م.

30.الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين (بيروت) ط3 سنة 1980م.

31.عبدالعزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية، أنور الجندي، دار الغرب الإسلامي (بيروت) ط1 سنة 1984م.

32.مقدمة ابن خلدون، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت - لبنان) ط1 سنة 2004م.

33.البداية والنهاية، إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار التقوى مصر.

34.أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، عبدالرحمن حميده، دار الفكر دمشق ط 2 سنة 1980م.

35.أبو الريحان البيروني - موسوعة العرب -، عمر فاروق الطباع، عبدالمنعم الهاشمي.

36.الرواد المسلمون، عبدالله عبدالغني غانم.

37.مجلة العربي عدد 595 سنة 2008م.



الفهــرس

